

فنون الأدب العربي

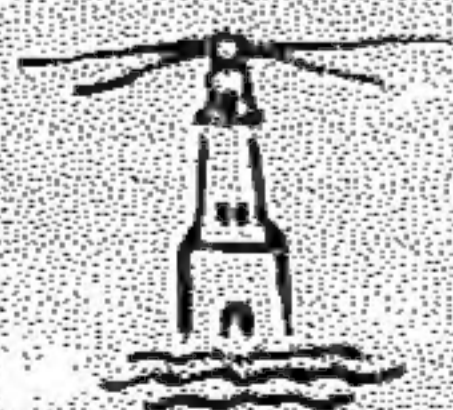
الفن الغنائي

٥

انفخر والحماة

بقلم

حنّا الفاخوري



دارالمعارف



0006217

Bibliotheca Alexandrina

38

فنون الأدب العربي

الفن القينائي

٥

الفخر والحماية

الطبعة الخامسة



دارالمغارف

فهرس

صفحة	
٥	مقدمة
٩	الفصل الأول : الفخر الذاتي
١١	في الجاهلية :
١٢	— فخر الصعاليك
١٥	— فخر الشعراء الفرسان
١٧	— فخر الأمراء وشعراء البلاط
٢٣	في العهد العباسي :
٢٤	— فخر المجددين
٢٧	— فخر العودة إلى القديم
٢٩	— فخر شعراء الإمارات
٣٧	الفخر الذاتي بعد العهد العباسي
٣٨	الفصل الثاني : الفخر الحزبي
٤٠	— شعر الخوارج
٤٠	— شعر الشيعة
٤١	— شعر الزبيريين

صفحة

٤٢	• • • • •	— شعر الأمويين
٤٤	• • • • •	— شعر المثلث الأموي
٤٩	• • •	الفصل الثالث : الفخر الديني أو الحماسة الدينية :
٥٣	• • • • •	الفصل الرابع : الفخر الحماسي :
٥٦	• • • • •	— الحماسة في الجاهلية
٧٩	• • • • •	— الحماسة في العهد العباسي
٩٠	• • • • •	— شعر الحماسة بعد أبي الطيب المتنبي

مقدمة

الفخر من أدل فنون الأدب على فطرة الإنسان ، فهو صدى تطلع النفس إلى ذاتها ، والتعبير عن الأثرة أشد النزعات فيها . والإنسان ، كما لا يخفى ، سجين ذاته منذ الولادة ، يديم النظر في مرآتها ، مستجلباً محاسنها ، صابغاً قبائحها بما يجعلها في ميزانه دون قبائح الناس أجمعين ، مقارناً فيما بينها وبين غيرها ، وهذا الإيثار للنفس ، إذا تجسم في عبارات شعرية ، كان الفخر وكان الحماسة .

والفخر هو تعداد الصفات وتحسين السيئات ، وهو رفيق الآداب كلها منذ كان للشعوب آداب ، وهو عند العرب باب واسع من أبواب شعرهم ، يعبر عن ميلهم الطبيعي إلى الأنفة والعزة ، كما يعبر عن انتفاخ أعصابهم تحت تأثير العوامل الجوية والطبيعية ، وانطلاقها النباض وراء الآمال والذرى .

والذات في الفخر ذات وتمددات للذات ، من خلال خَلْقِيَّةٍ وَخُلُقِيَّةٍ ، ومن أصل ونسب ، وحزب ومذهب ، وأعمال وأقوال ، ومواقف كرامات وبطولات ، وما إلى ذلك مما لا نهاية له . والفخر من ثم أنواع : فخر ذاتي ، وفخر حزبي سياسي ، وفخر ديني ، وفخر حزبي .

أما الفخر الذاتي فهو ما دار حول العقل والقلب واللسان والساعد ، وما دار

حول القبيلة والآباء والأجداد . وأما الفخر الحزبي فهو لسان الحزب ينطق بحقوقه وطموحه ، وينشر تعاليمه وآراءه ، ويهدف إلى الامتداد والاستيلاء ، وقد ازدهر منذ فجر الإسلام وعلا نجمه في العهد الأموي ، وذلك لقيام الأحزاب المتناحرة من أمويين وعلويين وزبيريين وخوارج وغيرهم ممن سبأني الكلام عنهم في محله . وأما الفخر الديني فقد ظهر خصوصاً مع الإسلام ورافقه في فتوحه وانتشاره ؛ وأما الفخر الحزبي فهو شعر الحماسة ، والحماسة نشأت مع العربي منذ كان ، ومنذ ارتقى في أحضان طبيعة قاسية جعلته غرضاً لأحداث الزمان ، ونكبات الأحداث ؛ وقد فطر العربي لذلك على الشجاعة والقتال ، وأصبح القتال جزءاً من حياته الطبيعية ، وطالما نشبت الحروب عند العرب ، وشبت الثورات الدامية ، فمن حرب الأوس والخزرج ، إلى حرب داحس والغبراء بين عيس وذبيان ، إلى حرب البسوس بين بكر وتغلب ، إلى حروب اليمن وعدنان ، إلى حروب الفتوح التي امتدت مياديها من حدود الصين إلى بحر الظلمات ، إلى قلب أوربة ، إلى الحروب المختلفة التي رافقت العرب في ميادين عملهم ، والتي فجرت القرائح ، فتدفقت بسيل ملحمة مختلف زاهر بالبطولة والعزة .

ولما كان الفخر والحماسة من نتاج العاطفة الشديدة ، والانفعال العميق ، فقد حفلت بالمغالاة ، وانطلق فيهما الخيال مضخماً مهولاً ، وبرزت فيهما الحقائق التاريخية مجلية بجلباب العاطفة والخيال ، واشتدت فيهما الأساليب الكلامية والألفاظ والحروف اشتداداً هداراً ، يرافق انفجارات النفوس واصطخابات القلوب ، كما يرافق في مجالات القتال صهيل الخيول ، وقعقات الأسلحة ، وجلبات المنون .

وإننا سنلزم في دراستنا هذه جانب الإيجاز ، مقتصرين على الخطوط الكبرى ، مبينين المعالم والأطوار ، لا يهملنا من الأدباء إلا من مثل طوراً ، ومن الأحداث إلا ما كان عاملاً قوياً من عوامل التطور ، ومن الميزات الأدبية إلا ما كان بارزاً شديد البروز .

والله ولي التوفيق .

حنا الفاخوري

الفصل الأول

الفخر الذاتي

قلنا في مقدمتنا إن الفخر الذاتي هو ما دار حول الشاعر في نفسه وفي آبائه وأجداده . وهذا كثير في الأدب العربي لا يكاد يخلو منه ديوان ، وذلك أن العربي نزوع من فطرته إلى العلاء ، ميال إلى التعالي والمباهاة ، شديد الاندفاع بما في نفسه من نزعات ، والتغنى بما فيها من حسنات ؛ شديد التطلع إلى ما مضى من الزمان وإلى مآثر الآباء والأجداد ، وهم في نظره هو عاملاً بأيديهم ، مفكراً بعقولهم ، باذلاً بأكفهم ، رافعاً مداмик المجد بأناملهم الزهراء ، قائلًا أروع القول بالسنتهم البليغة . وللصحراء المحببة يد فعالة في تطلب ما لا يوجد ، وفي استثارة الهمة لنيل المثل العليا ؛ وللأنحطار والضيق يد فعالة في تنزي الطموح وتوثبه إلى الذرى ؛ وللمهاجمة العناصر وقوى العدو الغازي أو المستعمر يد فعالة في اهتزاز الأعصاب واستحثاث الغضبة الكبرى ، التي تنفجر مفاخر لا يحد من انطلاقها حد ، والتي تتسلح بأجنحة الخيال المضخم ، وتدوم في أجواء تناطح غوارب المستحيل .

والأخلاق والعادات تماشي ، عند كل أمة ، حاجاتها وصور معيشتها ، ومن ثم كانت الأخلاق والعادات التي فخر بها العرب ثمرة حاجاتهم وصور معيشتهم ، وقد فخرُوا بكرم العنصر ، وقوة العصبية ، ومنعة الجانب ، والشجاعة ، والكرم ، والإباء ، والوفاء ، والمروعة ، وما إلى ذلك مما كان شأنه عندهم عظيمًا . ثم فخرُوا بالتعقل ، والفيض الشعري ، وحسن الصياغة ، والجمال الفني ، وما إلى ذلك مما سنأتي على ذكره فيما بعد .

عاش العرب ، أول ما عاشوا ، في بلاد تعددت صحاريها ، وقل مأواها ،

واتسعت أراضيها المجذبة ، وتسלט عليها الحر والسموم ، فكانوا في أكثرهم بدواً يسكنون الخيام وينصرفون إلى رعى الإبل والشاء ، لا يقيمهم غير سواعد قوية وقلب جرىء وتضامن قبلي ، ومن ثم كانت الشجاعة أغنية آمالهم ، وكانت القبيلة محط رحالهم يرتكز عليها نظامهم الاجتماعي ، ويتعصبون لها أشد التعصب .

ولما كانت الحياة في البادية معرضة لقسوة السماء والأرض ، يلوح فيها شبح الفاقة كل حين ، عظم شأن الكرم عند العرب ، وهو سبيل العيش لفئة كبيرة من الناس ، وراح الشعراء يتغنون به ، ويفخرون بالبذل والعطاء ، ويفخرون أنهم يعطون على البديهة ، وأنهم يسرعون في البذل وإن جهلوا السائل ، وأنهم يتהלلون إذا جاء الطالب وأتاح فرصة للعطاء ، وأنهم يرحبون بالضيف ويقدمونه على الأهل والولد ، ويوقدون له نار القرى ليلاً على الجبال والربى ، ويعودون كلهم أن ينبح للضيفان فيهدوا بصوته ، إلى غير ذلك مما لا حصر له .

والحياة في البادية حياة فطرة وصفاء طبيعة ، ومن ثم مال العرب إلى الحلم والإباء والشرف ، وراحوا يتغنون بكرم قلوبهم ، وترفعهم عن الفحشاء ، وتنكرهم للعار والصغار ، وتواضعهم وحياتهم ، وعفوهم عند المقدرة ، كما راحوا يتغنون بشورتهم في وجه الإهانة ، وصلابتهم في طلب الثأر .

والحياة في البادية حياة ترحل وتنقل ، لا يقيدتها قيد قانون ، ولا قوة منفذة . ولا محاكم ولا شرطة ، ولذلك كانت كلمة الشرف قانون الحياة ، وكان الوعد الصادق سنة المجتمع ، وكان الوفاء عند العرب من أقدس الأمور ، والغدر ونقض العهود من أحقرها وأبغضها إلى النفوس ، ولهذا تغنى الشعراء بالوفاء ، وأشادوا بذكر الأوفياء .

والحياة في البادية حياة فروسية يعمل الأبطال فيها على حماية المستضعفين والبائسين ، ونجدة الملهوفين ، وإغاثة المحروبين ، وقد تغنى الشعراء من ثم بحفظ الجار وإعزاز جانبه ، وبتلبية دعوة المكرويين في الحرب ، وبفك

العانى الذى أسر ، وبالدفاع عن المرأة ، وبكل ما هو من ميزات الفروسية الحق التى ترفع الإنسان إلى درجة عالية من السمو والكمال .

تلك كانت الحياة فى البادية ، وتلك كانت الخلال التى فخر بها الشعراء .

ولما جاء الإسلام جمع كلمة العرب ونقل حياتهم من فردية قبلية إلى قومية عربية ، ونظم شؤونهم الاجتماعية ، وتناول أصولهم الأخلاقية وهذبها ونماها ووجهها فى طريق الاستقامة والفضيلة والخير ، ولبت الشعراء يفخرون بها مصطبغة بالصبغة الإسلامية ، ويزيدون ما توحى به البيئة الحديدية والدين الجديد . ولما كان العهد العباسى حيث نقلت ثقافة العالم القديم إلى العرب ، وانتشرت فى ديارهم الحركة العلمية ، وشاع فيهم التحصيل العلمى والسعى فى تركيز المعلومات ، وسن قوانين الكتابة والصناعة ، زاد الشعراء على مفاخرهم ما أوحى به البيئة الحديدية ، فراحوا يتغنون بالشاعرية والعقل واللباقة فى استنباط المعانى ، كما راحوا يتغنون بالذوق فى التنصيد والزخرفة وما إلى ذلك . ولبت تلك الحركة الفخرية على حالها من ناحية الموضوعات والأساليب إلى منتصف عهد النهضة ، وقد تقلص ظلها شيئاً فشيئاً بازدياد الوعي وتطور الحضارة . وإليك نظرة تاريخية تحليلية فى أشهر شعر الفخر الذاتى على ممر العصور .

الفخر الذاتى فى الجاهلية

نبت الفخر فى الجاهلية نبثاً تلقائياً من نفوس تهوى العزة والمجد ، وقد ساعد عليه ما كان هنالك من أسواق تبسط أمام القبائل ميادين قول ومفاخرة ؛ ومن مواقف منافرة تقوم بأن يدافع شاعر محكم عن أحد سيدين متخالفين ، فينفره على خصمه ومنازعه ويفضله عليه مبيناً ما له من فضائل وحسنات ؛ ومن مجالس أدب كان العرب يجتمعون فيها لمناشدة الأشعار ومبادلة الأخبار ، وكانوا يسمونها أندية ، وكان لكل ناد فناء يزدهمون فيه للتناشد والتفاخر .

١ - فخر الصعاليك :

للصعاليك في الأدب العربي فخر هو عصارة البادية وخلاصة النفس العربية الأصيلة . فتأبط شراً هو البادية في بداعتها وقسوتها ، في شظف عيشها وانطلاق حريتها ، في هربها من النفس إلى النفس ، في سداجتها العذبة وفي ماديتها اللاحقة بالأرض . وهو رجل الانفرادية الذي لا يصحبه إلا « الهماني الأفل » ، ورجل الحزم الذي يقرن الشجاعة إلى الفطنة ، والإقدام إلى الحكمة ، فيحتال على الأيام ويبعث النظر رائداً للعمل ، فهو « للقصد يبصر » وهو « إذا سد منه منخر جاش منخر » ، وهو « شري » للعدو و « أرى » للصديق . والحرية الجاهلية من أقدس الأمور لديه فهو يؤثر الموت على ذل الأسر والقيد ، إلا أن الموت لا يناله بل « يبقى خزيان ينظر » فيتغلب على الموت بالحزم ، ويفلت من القيد بالحيلة . فهو أبداً يقظان يحسب لكل شيء حساباً ، وهو أبداً رجل الشخصية القوية والثقة بالنفس ، وهو على فقره وتشرده كريم جواد يقري الضيف صيف شتاء ، ويؤثر أضيافه على نفسه ، كما يدفع عن جاره ، ويأبى إلا أن يكون عزيز الجانب ، قرير العين . والثأر في نظره واجب وهو حكم الحقيقة ولسان الحق :

إذا المرء لم يختل وقد جدَّ جدُّه	أضاع وقاسى أمره وهو مُدِيرُ
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلاً	به الخطب إلا وهو ليلقصد مبصرُ
فذاك قريع الدهر ما عاش حول	إذا سدَّ منه منخر جاش منخرُ
أقول للخيان وقد صغرت لهم	وطايب ويومي ضيق الجحر مغورُ
هما خطتا إما إसार ومنبة	ولما دم والقتل بالحر أجدرُ

وَأُخْرَى أَصَادِي النَّفْسِ عَنْهَا وَإِنَّهَا
فَرَشْتُ لَهَا صَدْرِي فَنَزَلَ عَنِ الصِّفَا
فَخَالَطَ سَهْلَ الْأَرْضِ لَمْ يَكْدَحِ الصِّفَا
فَأَبَتْ إِلَى فَهْمٍ وَمَا كِدَتْ آثِبًا
لَمَوْرِدُ حَزْمٍ إِنْ فَعَلْتُ وَمَصْدَرُ
بِهِ جُوجُؤُ عَيْلٍ وَمَتْنٌ مُخَصَّرُ
بِهِ كَذْحَةُ وَالْمَوْتُ خَزِيَانٌ يَنْظُرُ
وَكَمْ مِثْلُهَا فَارَقْتُهَا وَهِيَ تَصْفِرُ

وذلك هو العربي الجاهلي ، وتلك هي النفس العربية الأصيلة التي ما تعلمت بعد أن تموه الحقيقة بالصنعة والكذب ، فالحياة عنده هزء بالحياة ، وتعلق بها ، هي كرامة تحفظ ، ومال يبذل ، وحرية تقدر ، ويد تمتد ، وانطلاق من غير انكفاء في جو من الاطمئنان والحذر ، واللاوعي الحازم .

والشنفري هو أيضاً ابن الصحراء وابن الطبيعة العربية الأصيلة ، وابن الفطرة الغنية بالاعتزاز والشرف والكرم وعلو النفس ، فجفاف الصحراء ، ومطاردة الشدائد كراً وفرّاً ، والتنكر للمذلة ، وإيثار الوحوش على الأهل لأنها أحفظ للسر وأحرص على الجار وإن جار ، والاكتفاء بالقليل مادة وسكناً . والصبر على الجوع ، وإيثار التراب على طعام المتفضلين ، ومجاعة الأيام ، والقبول بالفقر والغنى ، والارتياح إلى القوس ... هذا هو الشنفري ، وهذا موضوع فخره ، وتلك طريقته الاعترافية الحافلة بالعدوثة . وها هو ذا ، وقد دخل الغيظ نفسه ، فغادر الأهل والأصحاب ، وراح يضرب في القيا في ولا أنيس له سوى السهام ووحوش الصحراء ، ثم نظم قصيدة كانت حكاية لحاله في عزة نفسه وسخطها ووحشتها . نجزئ منها بما يلي :

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صَدُورَ مَطِيئِكُمْ
فَقَدْ حُمَّتِ الْحَاجَاتُ وَاللَّيْلُ مُقْمِرٌ
فِي الْأَرْضِ مَنَآئِي لِلْكَرِيمِ عَنِ الْأَذَى
فِيَّ إِلَى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لِأَمِيلٍ
وَشُدَّتْ لَطِيَّاتِ مَطَايَا وَأَرْحُلُ
وَفِيهَا ، لِمَنْ خَافَ الْقَيْلَى ، مُتَعَزِّلُ

لَعَمْرُكَ مَا فِي الْأَرْضِ ضِيقٌ عَلَى أَمْرِي
وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سَيِّدٌ عَمَلَسَ
هُمْ الْأَهْلُ لَامُسْتَوْدَعِ السَّرِّ ذَاتِعُ
وَكُلُّ أَبِي بَاسِلٌ ، غَيْرَ أَنِّي ،
وإن مُدَّتْ الْأَيْدِي إِلَى الزَّادِ لَمْ أَكُنْ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا بَسْطَةٌ عَنْ تَمَضُّلٍ
وَإِنِّي كَفَانِي فَقَدْ مَنْ لَيْسَ جَازِيَةً
ثَلَاثَةُ أَصْحَابٍ : فُوَادٌ مُشِيعٌ
هَتُوفٌ مِنَ الْمَلْسِ الْمُتُونِ يَزِينُهَا
إِذَا زَلَّ عَنْهَا السَّهْمُ حَنَّتْ كَأَنَّهَا

سَرَى رَاغِبًا أَوْرَاهِبًا وَهُوَ يَغْقِلُ
وَأَرْقُطٌ زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءٌ جَيَّالٌ
لَدَيْهِمْ ، وَلَا الْجَانِي بِمَا جَرَّ يُخَذَلُ
إِذَا عُرِضَتْ أُولَى الطَّرَائِدِ أَبْسَلُ
بِأَعْجَلِهِمْ ، إِذَا أَجْشَعُ الْقَوْمِ أَعْجَلُ
عَلَيْهِمْ وَكَانَ الْأَفْضَلُ الْمُتَفَضِّلُ
بِحُسْنِي وَلَا فِي قُرْبِهِ مُتَعَلِّلُ
وَأَبْيَضُ إِضْلِيلَتٍ وَصَفْرَاءُ عَيْطَلُ
رِصَائِعُ قَدْ نَيْطَتُ إِلَيْهَا وَمَحْمَلُ
مُرَزَّاةٌ تُكَلِّي تَرْنُ وَتُغُولُ

وعروة بن الورد هو رجل العطاء والجلود يفخر بهما في غير تبجح ، وهو
رجل الاشتراكية الساذجة المرتكزة على محبة الغير والحلب على ذوى البؤس ، ومن
أروع ما قال في هذا الصدد :

دَعِينِي أَطُوفُ فِي الْبِلَادِ لَعَلَّنِي
أَلَيْسَ عَظِيمًا أَنْ تُلِيمَ مُذِمَّةٌ
فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَمْلِكْ دِفَاعًا بِحَادِثٍ

أَفِيدُ غِنَى فِيهِ لَدَى الْحَقِّ مَحْمِلُ
وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْحَقِّ مَعُولُ
تُلِيمُ بِهِ الْأَيَّامُ فَاَلْمَوْتُ أَجْمَلُ

ومن ثم ترى أن هذا الصعلوك من أشرف الصعاليك ، فهو يعيش لغيره أكثر
مما يعيش لنفسه ، ويبدل كل شيء في سبيل الغير . وفخره اعتراف بما يعمل
وبما يرى ، واندفاق طبعي للنفس الجاهلية ، في أقرب حالاتها إلى الفطرة .

ب - فخر الشعراء الفرسان :

وهناك فئة أخرى من الشعراء هي فئة الشعراء الفرسان ، وأحسن شعرهم في الحماسة والفخر ، وخير ممثلين لهم : حاتم طي وعنترة بن شداد .
 أما حاتم الطائي فهو سيد من سادات قبيلته ، وهو مضرب المثل في الجود وكرم الأخلاق والعاطفة الإنسانية التي تمتد إلى كل ضعيف وغريب ، ومعوز وأسير . قال ابن الأعرابي : « كان حاتم من شعراء العرب ، وكان جواداً يشبه شعره جوده ، ويصدق قوله فعله ، وكان حينما نزل عرف منزله ، وكان مظفراً ، إذا قاتل غلب ، وإذا غم أنهب ، وإذا سئل وهب ، وإذا ضرب بالقداح فاز ، وإذا سابق سبق ، وإذا أسر أطلق . وكان يقسم بالله ألا يقتل واحداً أمه . وكان إذا أهل الشهر الأصم ، الذي كانت مضر تعظمه في الجاهلية ، ينحر كل يوم عشرة من الإبل ، فأطعم الناس واجتمعوا عليه » .
 وهكذا كان حاتم مترفعاً عن الدنيا ، وهو يقول :

كَرِيمٌ لَا أَبَيْتُ اللَّيْلَ جَادُ	أَعَدُّدُ بِالْأَنَامِلِ مَا رُزِيتُ ^(١)
إِذَا مَا بَيْتٌ أَشْرَبُ فَوْقَ رِيٍّ	لِسُكْرِ فِي الشَّرَابِ ، فَلَا رَوَيْتُ
إِذَا مَا بَيْتٌ أَخْتِيلُ عِرْسَ جَارِي	لِيُخَفِّيتِي الظَّلَامُ فَلَا خَفِيتُ ^(٢)
أَفْضَحُ جَارَتِي وَأَخُونُ جَارِي ؟	مَعَاذَ اللَّهِ أَفَعَلْتُ مَا حَيَّيْتُ !

فهو عفيف وهو أبي النفس ، وهو لا يخون الجار مهما تقلبت الأحوال .
 وهو رائع في فخره هذا ، مرتق إلى درجات عالية من سمو الأخلاق .

(١) الجادى : السائل . رزيت أى رزئت : أصبت به .

(٢) اختل : أخادع . العرس : الزوجة .

وحاتم لا يعبد الدينار ، بل يرى أن الحياة بذل وسخاء ، وأن المال خلق للبذل في سبيل الثناء والذكر الحميد . فعلى الإنسان ألا يكسبه بالغدر ، وعليه ألا يتمسك به تمسكاً شديداً ، وهو يقول :

إِذَا كَانَ بَعْضُ الْمَالِ رَبًّا لِأَهْلِهِ فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ ، مَا لِي مُعَبِّدٌ
يُفَكُّ بِهِ الْعَانِي ، وَيُؤْكَلُ طَيْباً وَيُعْطَى ، إِذَا مَنَّ الْبَخِيلُ الْمَطْرَدُ

وللمال في مذهبه سبل ، وللبذل في نظره مبرر ، فالعيش قصير ، والحياة فانية ، وخير ما يترك الإنسان على الأرض ذكر طيب ، وثناء يردده القاصي والداني .

وحاتم يوقد النيران للضيفان ليلاً ، ويبذل في سبيلهم كل نفيس . وكان إذا جنَّ الليل يوعز إلى غلامه أن يوقد النار في يفاع من الأرض لينظر إليها من أضله الطريق فيأوى إلى منزله ، وكانت كلابه لا تهر في وجه ضيوفه :

وإِنَّا نُهِنُ الْمَالَ فِي غَيْرِ ظَنَّةٍ وَمَا يَشْتَكِينَا فِي السُّنَنِ ضَرِيرُهَا (١)
إِذَا مَا بَخِيلُ النَّاسِ هَرَّتْ كِلَابُهُ وَشَقَّ عَلَى الضَّيْفِ الضَّعِيفِ عَقُورُهَا (٢)
فإِنِّي جَبَّانُ الْكَلْبِ بَيْتِي مُوَطَّأً أَجُودُ ، إِذَا مَا النَّفْسُ شَحَّ ضَمِيرُهَا
وإنَّ كِلَابِي قَدْ أَهَرَّتْ وَعُودَتْ قَلِيلٌ ، عَلَى مَنْ يَغْتَرِينِي ، هَرِيرُهَا

وهكذا كان حاتم عبداً لضيفه ، وكان اشتراكى التزعة ، وهكذا كان فخره حكاية حال ، وتصويراً للحقيقة والآمال ، وهكذا كان رجلاً فوق الرجال ، وعلماً من أعلام المروءة العربية الأخاذة .

وأما عنتر بن شداد العبسي ففيه « معنى الرجولة العربية الكاملة » فهو رقيق

(١) السنون : أى سنو القحط .

(٢) العقور : الذى يعقر .

دون أن تنتهى به الرقة إلى الضعف ، وهو شديد دون أن تنتهى به الشدة إلى العنف ، وهو صاحب شراب دون أن ينتهى به السكر إلى ما يفسد الخلق والمرءة ، وهو صاحب صحودون أن ينتهى به الصحو إلى التقصير عما ينبغى للرجل الكريم من العطاء والندى ، وهو مقدم إذا كانت الحرب ، وهو عفيف إذا قسمت الغنائم وهو يحاول أن يصف من أخلاقه ما يشرف به العربى الكريم « فيقول :

أَتْنِي عَلَىٰ بِمَا عَلِمْتَ فَإِنِّي سَهْلٌ مُّخَالَفَتِي إِذَا لَمْ أُظْلَمَ (١)
وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بَعْدَ مَا رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ (٢)
فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي ، وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصُرُ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتَ شِمَائِلِي وَتَكْرِي

وعنزة يغشى الوغى ويعف عن المغنم ، وهو رجل حياء وتكرم وعفة ، وفخره صورة صادقة لنفسه الشريفة التى تأتى القيود ، وتسمو إلى العلاء ، ولا تقبل الذل والصغار ، والتى تؤثر الجوع على المأكل الحسيس ، ولا تخون البحار فى ماله أو فى عرضه .

ح - فخر الأمراء وشعراء البلاط :

وقد تعالت نغمة الفخر فى الجاهلية عند الأمراء أيضاً وشعراء البلاط ، إلا أن تلك النغمة لم تكن مجرد اعتراف وحكاية حال ، بل تضخمت أوتارها بعض التضخم ، فتضخمت من ثم المعانى والأخيلة ، ولكن من غير إحالة ولا غلو مكروه . ومن هذه الفئة السموءل وطرفة بن العبد .

(١) مخالفتى ؛ معاشرتى .

(٢) المشوف : المجلو ، استعارها للدينار . المعلم : الذى يحمل كتابة .

أما السموءل فهو ابن غريص بن عادباء اليهودى صاحب الحصن المعروف بالأبلق بتياء ، وبه يضرب المثل فى الوفاء ، لأنه أسلم ابنه ولم يخن أمانته فى دروع أودعها عنده امرؤ القيس لما صار إلى القسطنطينية يطلب معونة القيصر . والسموئل على النفس عزيزها ، ينظر إلى كل شئ من عل ، لا عن كبرياء عمياء ، ولا عن غرور صبياني ، بل عن أنفة مكونة من عرض مصون ، وكرم أصل ، وتسام فى صفوف شبان قومه وكهولتهم ، وعزة جبار ، ومنعة وشجاعة ، وسخاء يد ، وتاريخ مجد لا يعدله مجد . وشعر السموئل صورة لتلك النفس الرفيعة بما فيه من متانة فى الأسلوب والتركيب ، وما فيه من رصانة وجلال . قال مفتخرًا :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللَّوْمِ عِرْضُهُ	فَكُلُّ رَدَائِ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ
وَلِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَمِيمَهَا	فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ
تُعِيرُنَا أَنَا قَلِيلُ عَدِيدُنَا	فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكِرَامَ قَلِيلُ
وَمَا قَلُّ مَنْ كَانَتْ بَقَايَاهُ مِثْلَنَا	شَبَابٌ تَسَامَى لِلدَّعَا وَكُهُولُ
وَمَا ضَرَرْنَا أَنَا قَلِيلُ وَجَارُنَا	عَزِيزُ وَجَارِ الْأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ
لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّهُ مَنْ نُجِيرُهُ	مَنْبِيعٌ يَرُدُّ الطَّرْفَ وَهُوَ كَلِيلُ
رَسَا أَصْلُهُ تَحْتَ الشَّرَى وَسَمَا بِهِ	إِلَى النَّجْمِ فَرَعٌ لَا يُنَالُ طَوِيلُ
وَلَنَا لِقَوْمٍ مَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً	إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ
يَقْرُبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا	وَتَكْرَهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ
وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتَفَ أَنْفِهِ	وَلَا طُلُّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ
تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الظُّبَاتِ نَفُوسُنَا	وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ الظُّبَاتِ تَسِيلُ
صَفَوْنَا فَلَمْ نَكْدُرْ وَأَخْلَصَ سِرُّنَا	إِنَاثُ أَطَابَتْ حَمَلَنَا وَفُحُولُ

عَلَوْنَا إِلَى خَيْرِ الظُّهُورِ وَحَطْنَا
فَنَحْنُ كَمَا الْمُزْنِ مَا فِي نِصَابِنَا
وَنُنَكِّرُ إِنْ شِئْنَا عَلَى النَّاسِ قَوْلَهُمْ
إِذَا سَيِّدٌ مِنَّا خَلَا قَامَ سَيِّدٌ
وَمَا أُخْمِدَتْ نَارٌ لَنَا دُونَ طَارِقٍ
وَأَيَّامُنَا مَشْهُورَةٌ فِي عَدُونَا
وَأَسْيَافُنَا فِي كُلِّ غَرْبٍ وَمَشْرِقٍ
مُعَوَّدَةٌ أَلَا تُسَلُّ نِصَالُهَا
سَلِي إِنْ جَهِلَتِ النَّاسَ عَنَّا وَعَنَّهُمْ
فَإِنَّ بَنِي الدِّيَّانِ قُطِبٌ لِقَوْمِهِمْ
لِوَقْتٍ إِلَى خَيْرِ الْبُطُونِ نَزُولُ
كَهَامٌ وَلَا فِينَا يُعَدُّ بِخَيْلُ
وَلَا يُنَكِّرُونَ الْقَوْلَ حِينَ نَقُولُ
قَوُولُ لِمَا قَالَ الْكِرَامُ فَعُولُ
وَلَا ذَمَّنَا فِي النَّازِلِينَ نَزِيلُ
لَهَا غُرُرٌ مَعْدُومَةٌ وَحُجُولُ
بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ
فَتُغَمَّدُ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَبِيلُ
فَلَيْسَ سِوَاءَ عَالِمٍ وَجَهْلُولُ
تَدُورُ رَحَاهُمْ حَوْلَهُمْ وَتَجُولُ

هذه القصيدة خلاصة الخلق العربي النبيل ، وخلاصة المروءة وعزة النفس ،
وهي تنقل القارئ إلى جو واسع من الرفعة ، وهي تنبض بالحياة وتمثل روح
صاحبها أقوى تمثيل ، وكأنني به شاخصاً في كل لفظة وكل نبرة وكل بيت ،
وكانني به في ذروة المجد العربي يردد القول :

تُعِيرُنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكِرَامَ قَلِيلُ

وأما طرفة بن العبد فليس من شعراء الفخر الذين أكثروا من القول فيه ،
ولكنه شاعر عاش في جو من التحرر الفكري والأخلاقي ، فاصطدم بالواقع الأليم ،
وطرد من حيه فراح يضرب في البلاد إلى أن اتصل ببلاط الحيرة ، واصطدم هنالك
أيضاً بضعة الناس ولم يحسن المراوغة ، وقد كان للاصطدام في نفسه انفعالات

شديدة ، وهو الشديقة الشجور ، والكثير الانكفاء على الذات وعلى أحداث الحياة يحللها ويحاول تفهم مصايرها ومصادرها وقد كان لنفسه غضبات وانتفاضات ضمنتها من أقوال الفخر ما يصيدى لحالاته النفسية أصدق إصداء . وهو في فخره رجل عنفوان يقبله على الواقع انطلاقاً بخياله ، وهو زجل صراحة وجراءة ، يصف لنا حاله في غير التواء ، وإذا هو قوى على حوادث الدهر ، صبور في الملمات ، وإذا هو من قوم مجدهم في أترانهم ، ورفعهم في اتضاعهم وبسطة أكفهم . لا تبدلهم الأحداث ، ولا تغيرهم الأحزان والمسرات ، يغطون في غير حساب ، ويقرون الضيفان في غير اقتصاد ، لهم في نحور الأشرار طعنات وطعنات ، ولهم في نحور الأخيار قلائد وقلائد ، لا تعز الحمرة في جنباتهم ، ولكن لهم مع الحمرة عقولاً راجحة ، وفضائل غراء :

وَتَشَكَّى النَّفْسُ مَا صَابَ بِهَا	فَأَصْبِرْ لِمَنْكَ مِنْ قَوْمٍ صَبْرٌ ^(١)
إِنْ يُصَادِفْ مُنْفِسًا لَا تُلْفِنَا	فَرُوحَ الْخَيْرِ ، وَلَا نَكْبُو لِضُرِّ ^(٢)
أَسَدٍ غَابٍ ، فَإِذَا مَا فَرَعُوا	غَيْرُ أَنْكَاسٍ وَلَا هُوجٍ ، هَذَرُ ^(٣)
وَلِيَ الْأَصْلُ الَّذِي فِي مِثْلِهِ	يُضْلِحُ الْإِبْرُ زَرْعَ الْمُؤْتَبِرِ ^(٤)
طَيَّبُوا الْبَاءَةَ ، سَهْلٌ ، وَلَهُمْ	مُسْبُلٌ إِنْ شِدَّتْ فِي وَخْشٍ وَعِرٍ ^(٥)
وَهُمْ ، مَا يَهُمُّ ، إِذَا مَا لَبِسُوا	نَسِجَ دَاوُدَ لِبَاسٍ مُخْتَصِرٍ ^(٦)

(١) صاب بها : الباء زائدة ، أى أصابها .

(٢) النفس : النفيس . نكبو ونكبن .

(٣) الأنكاس : البقاء .

(٤) الإبر : المصلح . المؤتبر : طالب الإصلاح .

(٥) الباءة : المساحة . يقول : إن ساحاتهم سهلة لطالبي معروفهم ، وهى وعرة لطالبي ضرهم .

(٦) نسج داود : أى الدروع . المختصر : الحاضر .

وَتَسَاقَى الْقَوْمُ كَأْساً مُرَّةً
 ثُمَّ زَادُوا أَنَّهُمْ فِي قَوْمِهِمْ
 لَا تَعِزُّ الْخَمْرُ ، إِنْ طَافُوا بِهَا
 وَرَثُوا السُّودُّدَ عَنْ آبَائِهِمْ
 نَحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفْلَى
 حِينَ قَالَ النَّاسُ فِي مَجْلِسِهِمْ
 وَلَقَدْ تَعَلَّمُ بَكْرٌ أَنَّنَا
 وَلَقَدْ تَعَلَّمُ بَكْرٌ أَنَّنَا
 وَلَقَدْ تَعَلَّمُ بَكْرٌ أَنَّنَا
 وَلَقَدْ تَعَلَّمُ بَكْرٌ أَنَّنَا
 وَعَلَا الْخَيْلَ دِمَاءُ كَالشَّقِيرِ^(١)
 غُفْرٌ ذُنُبُهُمْ ، غَيْرُ فُخْرٍ
 بِسِبَاءِ الشُّوْلِ ، وَالْكُومِ الْبُكْرِ^(٢)
 ثُمَّ سَادُوا سُودُّدًا غَيْرَ زَمِرٍ^(٣)
 لَا تَرَى الْآدِبَ فِينَا يَنْتَشِيرُ^(٤)
 أَقْتَارٌ ذَاكَ أَمْ رِيحُ قُطْرٍ ؟^(٥)
 آفَةُ الْجُزْرِ مَسَامِيحٌ يُسْرُ
 وَاضْحُو الْأَوْجُهَ ، فِي الْأَزْمَةِ ، غُرُ
 فَاضِلُو الرَّأْيَ فِي الرَّوْعِ وَقُرُ
 صَادِقُو الْبِئْسَ ، فِي الْمَحْفَلِ غُرُ

ويمضي الشاعر الشاب في تعداد المفاخر متثدلاً ، هادئ السرب ، واثقاً أن ما يقوله هو الحق ؛ لا يبغى التهويل ولا يتطلب التمجيد ؛ هو رجل عقيدة خاصة ، وهو رجل مروعة ، وهو رجل حزم وصرامة ؛ وهو في كلامه الصارم يصوغ المعاني في قالب من البداوة الأصيلة ، تلك البداوة الواعية التي ترى وتدرك وتقيس كل شيء بمقياس الأخلاق البدوية الرفيعة ، من غير ما إغراق في الغلو المبتذل .

• • •

-
- (١) الكأس المرة : الحديث في الحرب . الشقر : شقائق النعمان .
 (٢) طافوا بها : ساروا بها . سباء : شواء . الشول : النوق التي مر عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر . الكوم : النوق العظيمة السنام . البكر : الحديثات السن .
 (٣) الزمر : القليل .
 (٤) المشتاة : الشتاء . ندعو الجفلى : أى نعم بدعوتنا إلى الطعام ولا نخص أحداً .
 (٥) القتار : رائحة اللحم المشوي . القطر : العود الذي يتبخر به .

تلك نماذج من الفخر الذاتي في الجاهلية ، يتضح لنا من خلالها أن موضوعها الأخلاق العربية التي كان العربي يعتز بها ، وهي مستوحاة من حياة الفطرة وحياة البادية . ويتضح لنا أنها تنبت على لسان الشاعر الجاهلي نبأ تلقائياً في سداجة عذبة ، وفي إيمان ثابت بالكرامة العربية ، والعزة البدوية .

الفخر الذاتي في العهد العباسي

لم يقتصر الفخر الذاتي على الجاهلية وإنما تعداها إلى سائر عصور الأدب ، ورافق الشعر في جميع تطوراته ، وقد انتشر في العهد الإسلامي والأموي ولكنه امتزج بفكرة الفتوح ، وبالحماسة الهجائية والحربية ؛ ولهذا أثرنا أن نجعله في باب خاص ؛ ثم كان العهد العباسي ، وكان الانقلاب العظيم في السياسة والاجتماع والثقافة ، وجرى التمازج الضخم بين العرب والشعوب الأعجمية . وبين العقل العربي والعقل اليوناني والفارسي والهندي ، وبين الحضارة العربية وحضارة الشرق القديم ؛ ونشأت النزعة العنصرية في صفوف الشعوبية ، وكان للفخر على كل حال أبواب وأبواب . أما موضوعات الفخر الذاتي في العهد العباسي فهي مما يماشي حاجات أبناء ذلك العهد وصور معيشتهم . وقد كانوا في بدء الأمر في طور انتقال من حال إلى حال ، من عروبة أصيلة إلى عروبة ممتزجة ، من تشديد إلى تحرر ، من ثقافة وحضارة عربيين إلى ثقافة وحضارة هما مجموعة ثقافات وحضارات . من عادات وتقاليد عربية في الأخلاق والدين والأدب ، إلى عادات وتقاليد هي عبارة عادات وتقاليد ومجموعة نزعات تصطبغ كلها بصبغة الانفلات من القيود ، والتفلسف والجدل ، والاعتماد على العقل الذي فاجأته الفلسفات فحار بينها وحاول أن يهدم ويبني في غير تثبت عميق أحياناً كثيرة . ثم راح أبناء ذلك العهد يهضمون الفلسفة والعلوم ، وراحوا يبحثون وينظرون ، وراحوا يكتبون في ما يبحثون ، وإذا الجوجو علمي ثقافي تجديدي ، وإذا هنالك صراع بين القديم والجديد ، وبين التقاليد والتقاليد ، وإذا هنالك تفاخر على غير خطة الجاهلية والعهد الأموي ، وإذا الفخر يدور حول العقل والرأي والحكمة ، وحول الانفلات والتحرر ، والشجاعة الحكيمة ، والحزم في

الأمر ، والأصل العريق في الحضارة والرقى . والشاعرية الخلاقة والزخرفة الحافلة
بالفن ، والأصباغ المتماوجة في أجواء الجمال ، وحول الوقار والتعالى في سلم المجد
المعنوى ، وما إلى ذلك مما نلمسه بقوة في الأدب العباسي . ولئن عثرنا بعض
الأحيان على فخر بدوى يشبه الفخر القديم : فما ذلك إلا نفحات صحراوية في
بلاذ اليمن والرخاء . وما ذلك إلا أصوات ناشزة في عالم من الأنغام المتناسقة .

وإننا سنعرض لبعض شعراء الفخر في هذا العهد مبينين ما لهم من صفات
وميزات : موضحين آراءهم وأساليبهم ، وإن في شعرهم الدلالة الثابتة على ما في
شعر غيرهم من ميزات وآراء وأساليب .

أ - فخر المجددين :

حياة جديدة واسعة الآفاق ، وعناصر أجنبية تضمحلل الغرب شرقاً ، وشعبوية
غاضبة على السلطان القائم ، وتدخل الفرس في صلب الدولة ، كل ذلك دعا إلى
التجديد في مطلع العهد العباسي . بل دعا إلى صراع بين أرباب القديم وأرباب
الجديد . وخير ممثل لهذه النزعة التجديدية في الفخر بشار بن برد .

كان بشار من أصل غير عربي ، وكان فياض القريحة الشعرية ، ففخر
على عادة الشعراء ، وكان الميدان أمامه واسعاً ، وإذا به يصف نفسه بكل
الصفات المحببة إلى ابن العهد العباسي ، في كلام متين ، وتدفق عجيب ،
وسلاسة ما بعدها سلاسة ، وموسيقى شعرية أخاذة ، وإذا به رجل الشهرة الواسعة
التي لا تضاهيها شهرة :

أَنَا الْمَرَعْتُ لَا أَخْفَى عَلَى أَحَدٍ ذَرَّتْ بِيَ الشَّمْسُ لِلدَّانِي وَلِلنَّائِي

وإذا به نموذج ومثال أعلى يشبه به الخليفة نفسه :

يغدو الخليفة مثلي في محاسنه ولست مثلي فنسمي ماضغ الماء (١)

فهو أخو المحاسن ، وهو الرجل العالى فى مراتب الاجتماع ، وهو رجل الحطة العظيمة ، الذى ينهض بكل أمر ذى شأن .

وهو رجل المضاء والبيان :

قَطَعْتُ مِرَاءَ الْقَوْمِ يَوْمَ مَهَابِلِ بِقَوْلِي وَمَا بَعْدَ الْبَيَانِ مِرَاءُ
وَقَدْ عَلِمْتُ عَلِيًّا رَبِيعَةً أَنِّي إِذَا السَّيْفُ أَكْدَى كَانَ فِي مَضَاءِ

وهو القلب النير والمقول الذرب :

قَدْ أَذْعَرُ الْجِنَّ فِي مَسَارِحِهَا قَلْبِي مُضِيٌّ وَمِقْوَلِي ذَرْبُ

هو رجل العقل والخصافة ، هو رجل الثقافة الواسعة فى عالم الثقافة والعلم ، وهو رجل القريحة الفياضة فى عصر الإنتاج والنقل والترجمة ، وهو إلى ذلك رجل الوقار القائم على العقل المفكر :

يَا سَلَمَ إِنِّي أَمْرٌ يُوقِّرُنِي حِلْمِي إِذَا الْقَوْمُ فِي الْخَنَا وَثَبُّوا

أما قومه فخير القوم ، فى شجاعتهم ، وعزهم وشرفهم ، ورجاحة عقلهم :

أَصُونُ عَنِ اللَّثَامِ لُبَابَ وَدِّي وَأَخْتَصُّ الْأَكَارِمَ بِاللُّبَابِ
وَأَيُّ فَتًى مِنَ الْبَوَغَاءِ يُغْنَى مُقَامِي فِي الْمَخَاطِبِ وَالْخِطَابِ (٢)

(١) يخاطب يحيى بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس ويهجو وينتته بالحق وسوء وضع الأشياء موضعها .

(٢) البوغاء : الحق .

وَتَجْمَعُ دَعْوَتِي آثَارَ قَوْمِي هُمُ الْأُسْدُ الْخَوَادِرُ تَعْتُ غَابِ
وُلَاةُ الْعِزِّ وَالشَّرَفِ الْمَعْلَى يَرُدُّونَ الْفُضُولَ عَلَى الْمُصَابِ

هؤلاء هم قومه ، وهذا هو في قومه ، وهذا هو العقل عنده وعند قومه ،
وهذه هي النزعة الإنسانية التي تحنو على الوجود ، وتقابل النكران بالحدود ،
وتنبت من الشرخيراً ، ومن الغضب برأ ، وتسرع إلى الرحمة من غير ما سرعة
إلى العتاب والعقاب ، وترد الضال عن غيه ، وتلم الشعث ، ولا تطلب من عمل
خير عمله إلا أن ينتفع الناس ويعرفوا الحميل ؛ وإذا دعت الحال إلى الحرب ،
كانت تلك النزعة صدوراً متأهبة للقتال في بأس شديد ، وسخاء في التفاني عجيب .

مشهد جديد من مشاهد الفخر دعت إليه الحضارة الجديدة والمجتمع
الحديد ، وكم في هذا الفخر من تعقل ورصانة وجودة تفكير !
وأما أصل بشار فهو بعيد عن كل أصل عربي ، وهو بعيد عن عادات
العرب . وهنا تظهر النزعة الشعوبية عند بشار بأجلى مظاهرها . فاسمعه يقول .

هَلْ مِنْ رُسُولٍ مُخْبِرٍ عَنِّي جَمِيعَ الْعَرَبِ
بَأَنِّي ذُو حَسَبٍ عَالٍ عَلَى ذِي الْحَسَبِ
جَدِّي الَّذِي أَسْمُو بِهِ كَسْرَى وَسَاسَانِ أَبِي

إن في هذه القصيدة استعلاء شديداً على العرب ومفاخرة بالفرس والروم .
وهذا شيء جديد في تاريخ الفخر العربي . وإننا إذا أنعمنا النظر في القصيدة
تجلت لنا الحضارة الفارسية في أبهى وروئقها ، وذكرنا الحروب الفارسية
وانتصارات الأكاسرة ، ووقفنا أمام الشاعر متبعين لأحداث التاريخ ، ذاكرين
أثر الفرس في الانقلاب العباسي ، وكيف كان ذلك شرارة ألهبت النار الشعوبية

في طول البلاد وعرضها ، مما شجع الألسنة على تنقص العرب والخط من شأنهم والتطاول على كرامتهم .

وبشار رجل طوّحت به الأقدار وزجته في ظلمة كالحة ، لا يجد معها سلاحاً يقاوم به الحدثان إلا لساناً محدداً ، وشاعرية فياضة تلي حين الطلب . وهو رجل عنفوان وطموح ، تحمله طبيعته على التسامى وعلى سد نقص الطبيعة بذلك التسامى نفسه ، وهو من ثم ميال إلى المفاخرة ، حاقداً على الخط ، كاره للناس ولا سيما العرب منهم ، الذين يجد من بعضهم استصغاراً لشأنه . وهذا الشعور بالنقص عند بشار ، وهذا الحقد ، وهذا التسامى ، كل ذلك يدفعه إلى السخرية الصفراء ، إلى الاستهزاء الناقم . ولهذا حفل فخره بالاستهزاء اللاذع والسخرية القتالة .

وبشار إلى ذلك رجل حماسة فياضة ، يتنفض شعره بعاطفته انتفاضاً ، وتحمل ألفاظه أصداً عميقة لتلك العاطفة المنتفضة ، وهو القائل :

إِذَا الْمَلِكُ الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ مَشِينًا إِلَيْهِ بِالسَّيْفِ نُعَاتِبُهُ

وهكذا كان بشار نقيض العهد الجديد ، وهكذا كان فخره جديداً بمعناه وأسلوبه وشعوبيته ، وإن لم يخل من بعض النفحات القديمة التي انتقلت إليه عن طريق التقليد .

ب - فخر العودة إلى القديم :

بعد هذه الثورة التجديدية التي حاول أن يبعثها المجددون ، نشأ تيار معاكس يعمل على العودة إلى القديم وتقليد الأقدمين ، ويرد الشعر إلى أبواب البلاطات ، وإلى أرستقراطية القديم وصلابته ، من غير ما تغاض عن حضارة العصر الجديد ، ومن غير إهمال لما تقدمه الثقافة الجديدة من عمق تفكير ، وتنميق وتحبير ، ومن تفخيم وتطلب للصنعة البديعية . وقد اشتهر في هذه المرحلة أبو تمام والبحتري وابن الرومي .

أما أبو تمام فهو صاحب قصائد قليلة في الفخر ، يبدى فيها إعجابه بعقله الباكر الفذ ، وعبقريته الشعرية ، وبصبره ومضائه في اقتحام الصعاب ، وسعيه وأسفاره ، كما يعرب فيها عن إعجابه بقبيلته طيئ ، وما تمتاز به دون سواها من حجة وحلم وشجاعة ، ومن مجد أثيل ، وندى فياض .

وأما البحتري فقد أودع فخره إعجابه بقومه ، مباهاً بمكارمهم ، معدداً مناقبهم ، مقابلاً شرف اليمن وعزها بنخشونة عرب الشمال وسوء حالهم ، كما أودعه إعجابه بنفسه ، وكبره المفرط ، ذلك الكبر الذي طالما حال التكسب دونه في حياة الشاعر ، فاضطره إلى كسر عنفوانه وعناده ، ومضم الإهانة في حذر ، خشية صد العطاء .

وأما ابن الرومي فكان الفخر عنده وسيلة يحارب بها سوء نظر الناس إليه ، وكان انتفاضة عصبية في وجه الظلم ولؤم الناس . فهو يقرع الممدوحين على الالتفات إلى سائر الشعراء دونه ، وهو وحده في نظره الجدير بالالتفات ، ويفخر وفخره أحياناً كثيرة بشعره وبلاغته . ومن قوله :

شِعْرِي شِعْرٌ إِذَا تَأَمَّلَهُ الْإِنْسُ أَنْ ذُو الْعَقْلِ وَالْحَنْجَى عَبْدُهُ

ومن قوله أيضاً مخاطباً القاسم بن عبيد الله :

إِنْ أَكُنْ غَيْرَ مُحْسِنٍ كُلِّ مَا تَطْ	لَبُّ إِنِّي لَمُحْسِنٌ أَجْزَاءُ
فَمَتَى مَا أَرَدْتُ طَالِبَ فَخْصٍ	كُنْتُ مِمَّنْ يَشَارِكُ الْحُكَمَاءُ
وَمَتَى مَا أَرَدْتُ قَارِضَ شِعْرِ	كُنْتُ مِمَّنْ يُسَاجِلُ الشُّعْرَاءُ
وَمَتَى مَا خَطَبْتُ مَنِي خَطِيباً	جَلَّ خَطْبِي فِيقَ الْخُطَبَاءِ
وَمَتَى حَاوَلَ الرِّسَائِلَ رَسَلِي	بَلَّغَنِي بِلَاغِي الْبُلْغَاءُ

ح - فخر شعراء الإمارات :

ازدهرت الإمبراطورية العباسية ازدهاراً شديداً في امتداد أطرافها وسعة رقعتها وخصب أرضها وسمائها وعظمة سلطاتها ، وقد بلغت أوجها في عهد المأمون . وما إن دارت الأيام دورتها حتى تمزق هيكل تلك الإمبراطورية الضخمة لأسباب اجتماعية وسياسية ، وحتى أصبحت نهياً لكل ذي طموح وطمع ، وإذا الدولة تصبح دويلات ، أشهرها دولة بني العباس في بغداد ، ودولة البويهيين في فارس ، ودولة الحمدانيين في الشام ، ودولة الفاطميين في مصر والمغرب . وقد تنافست تلك الدويلات في تشجيع العلم والأدب ، وأصبحت البلاطات المختلفة مباءة الشعراء والكتاب . وقد اشتهر من الشعراء في هذه الحقبة أبو الطيب المتنبي ، وأبو فراس الحمداني ، والشريف الرضي ، وأبو العلاء المعري ، والطغراني .

أبو الطيب المتنبي :

ولد بالكوفة وفخره كثير في ديوانه . وهو مبثوث في جميع قصائده تقريباً ، وإن لم يستقل بوحدة منها . فأبو الطيب يفخر في جميع أحواله ، سواء رثى أم مدح أم هجا أم تغزل أم شكا . ولا عجب ، فهو لا يرى له مثيلاً في الوجود ، يعبد نفسه ويكاد لا يعرف في الأرض سواها . أحس بعظمة شخصيته ، وقدر صفاته ، من أنفة وعزة وبسالة وشاعرية . حق قدرها بل فوق قدرها ، فامتلاً صدره وفاض حسداً وكرهاً . زد على ذلك اشتهار أصله العربي بالفصاحة والبيان ، وقبيلته اليمنية بالفروسية والشجاعة . وكان له أيضاً من نشأته البدوية ما مكن فيه التزعة المفاخرة . حتى أصبحت فيه طبعاً ، ومن معاكسات الزمان ، ومناهضة الحساد ، ما جعله يعمد إلى الفخر ، تفريجاً وتعزية للنفس .

قلّ فخر المتنبي بقومه ، وإذا فخر بهم أوجز وأجمل ، لقلّة ما عرف عن آبائه الأقربين من المآثر والمفاخر ، ولأنه كان يعد نفسه مفخرة قومه :

لَا بِقَوِّى شَرُفْتُ ، بَلْ شَرُفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ ، لَا بِجُدُودِي !

ولذلك حصر فخره في نفسه ، مطرباً عزمه وصبره ، وتصلبه ، وخبرته :

كَأَنِّي دَحَوْتُ الْأَرْضَ مِنْ خَيْرَتِي بِهَا كَأَنِّي بَنَيْتُ الْإِسْكَانَ دَرُ السَّيْدِ مِنْ عَزَمِي

وهو يجب أن يتمثل بعنزة ، فيصف نفسه في المعمة ، يقع بالعدو
المدعور بالسيف والرمح . وكما تسمعه يتغنى بشاعريته ، ذاكرةً مقدرته في الشعر
وانقياد القوافي له :

أَنَامُ مِلَّةً جَفَوْنِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ النَّاسُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ

وسيرة شعره :

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مِنْ رُؤَاةٍ قَصَائِدِي إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا

وبهاء منظوماته وحسن سبكها :

وَمَا قُلْتُ مِنْ شِعْرِ تَكَادُ بَيْوتُهُ إِذَا كُتِبَتْ ، يَبْيَضُّ مِنْ نُورِهَا الْحَبِيرُ

والمتنبى يعد نفسه من مرتبة الأنبياء والملوك ، وكثيراً ما يجعل نفسه فوق
الجميع ، ويجمع فيها كل الصفات :

سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَا بِأَنِّي خَيْرُ مَنْ تَشْعَى بِهِ قَدَمُ
الْخَيْلِ وَاللَّيْلِ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ

وفخر المتنبى صريح ، جرىء في كبريائه الجموح ، بل مغال فيها إلى حد
مفرط ، وكثيراً ما يبطن كبريائه بازدياء شنيع يشمل الناس والكون جميعاً .

إلا أن فيه من الأنفة والترفع عن الدنيا ، وجمال الصفات الرجولية
واندفاع الروح الشعرية النابضة ، ما يغطي شيئاً من تلك المعاييب الضخمة ؛
ومن أروع المواقف التي توضح لنا نفسية المتنبي في فخرها واعتدادها ذلك
الموقف الجبار الذي وقفه في حضرة سيف الدولة وحوله الشعراء والعلماء وقد آلموه ؛
وقد أوغروا عليه صدر أمير حلب ، فقال قصيدة منها :

كم تطلبون لنا عيباً فيُعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي أنا الثريا وذان الشيب والهزم

أبو فراس :

أما أبو فراس الحمداني فقد افتخر كل حياته ، حتى في أسره ، وأقحم
الآبيات الفخرية في أغلب منظومه ، أياً كان نوعه .
كان لأبي فراس من عز قبيلته تغلب ، ومكانة آباءه الذين اشتهروا بالشجاعة
والجلد وعلو الهمة ، داع يستفز إلى الفخر ، ولا سيما أنه قد تفتحت عيناه للنور
في قصر تملؤه طائفة من حملة السيوف وأرباب الأدب .
ولما شب رأى في نفسه أنفة وفتوة ناضرة ، وشجاعة ترغب في قراع الأسنة
واقترحام المخاطر ، وشماثل أثارت في نفسه الإعجاب . ولما خاض ميدان القتال ،
وأحرز من الانتصار على مناهضي ابن عمه سيف الدولة ما هز أعطافه طرباً ،
هب يترنم بوقائعه ، وتمرسه بالشدة والتصلب في مجابهة الأخطار .
ثم لم يلبث أن أسر ، فتبدلت حاله ، ولكنه أنى المذلة ، فشرع يتعزى
ويتنشط بذكر مآثره وخصاله .

ولعل تيممه في حداثة سنه ، الذي حرمه عطف والده وحفاوة المتزلفين ،
دعاه إلى الفخر ، استعاضة عن مديح الشعراء .
ولأبي فراس في قبيلته وذويه مفاخر كثيرة ، منها قصيدة طويلة مطلعها :

لعلَّ خيالَ العامريَّةِ زائرُ فيسعدَ مَهْجورُ ، ويسعدُ هاجر

” وهو يرى في قبيلته الخير كله ، فإن ماضيها وما لها من الأيام الماثورة ، قبل الإسلام وبعده ، يشهدان بمفاخرها . وناهيك بآل حمدان دليلاً . هم أولو المناقب الرفيعة ، والآثر الجليلة ، وهم أصحاب الكرم والمجد والشجاعة :

لَسِنَّ خُلِقَ الْأَنَامُ لِحَسَوِ كَأْسِ وَمَزمارِ وَطَنْبُورِ وَعُودِ
فَلَمْ يُخْلَقْ بَنُو حَمْدَانَ إِلَّا لِمَجْدٍ أَوْ لِبِئَاسٍ أَوْ لِحُجُودِ

وفي آل حمدان السياسة المحنكة . وقد بذلوا في سبيل الخلافة فأقدموا على الحرب ردعاً للخوارج ، وتذليلاً للثائرين ، وقهراً للروم ، وإخضاعاً للقبائل المتشعبة . قال في قصيدة يفخر بها على نزار :

تُفَضِّلُنَا الْأَنَامُ وَلَا تُحَاشِي وَنُوصِّفُ بِالْجَمِيلِ وَلَا نُحَاطِي
وَقَدْ عَلِمْتَ رَبِيعَةُ بَلَّ نِزَارُ بَأْنَا الرَّأْسُ وَالنَّاسُ الذُّنَابِي

ولا يقف أبو فراس عند ذكر أسلافه الأبعدين . بل ينتقل إلى تعداد مناقب جدّه . ووالده ، وابن عمه سيف الدولة ، فتبدو له مفعرة باقية أبد الدهر ، يصونها الأحفاد بعد الأجداد ، ويكملون تشييد ما بنى قبلهم من صروح العز الرفيعة :

نَشِيدُ كَمَا شَادُوا ، وَذَبْنِي كَمَا بَنَوْا لَنَا شَرَفٌ مَاضٍ وَآخِرُ غَابِرُ

وهكذا يصل الشاعر إلى نفسه . فيفتخر باشتداد عزيمته ، وإقدامه ، وتصلب قوته في وقائع الحروب ، وأنفته ، وانبساط كفه ، وترفعه عن الدنية .

ومهما يكن من اشتداد النواثب وإيقاعها به ، فلا تزال نفسه تأبى مواطن
الذل وتحمل الإهانة وهبوط العزيمة ، ولكنها لا ترى ضيراً في التشكي والعتاب ،
وتذكر الواجب ، وما سوى ذلك مما وسعته الروميات . ذلك لأنه ظل في حياته
شريفاً عزيزاً :

وكيفَ يَنتَصِفُ الأعداءُ من رجلٍ العِزُّ أولُهُ والمَجْدُ آخرُهُ

يتوكأ أبو فراس في فخره على مفاخر قدامى العرب من مثل عمرو بن كلثوم
والمهلهل ، فيكثر من ذكر أسماء الرجال وموقع القتال ، ويجعل فخره قومياً أكثر
منه ذاتياً . إلا أنه لا يجيد وصف القتال ، ولا يطيل فيه كما كان يفعل المتنبي .
فكانت قصائده في هذا الباب تعداد مفاخر تزخر بعواطف الزهو والمجد ، وينفخ
فيها نفس عال فيه من الكبرياء والعزة القومية الشيء الكثير . ولا يخلو فخر
أبي فراس من الغلو ولكنه غير مفرط ، ولا يخلو من اللطف الذي يسمو به عن
الفخر الصبياني . وأبو فراس صادق العاطفة ، مندفع الحماسة وإن كان
ضعيف الوصف ، غير دقيق التصوير .

زد على ذلك أن لفخر أبي فراس قيمة تاريخية كبيرة لأنه سجل لأعمال
الرجل وما أثر قومه وأجداده .

الشريف الرضي :

أما الشريف الرضي فهو من أشهر شعراء الفخر عند العرب ومن شعره في
الفخر قوله :

لِغَيْرِ الْعَلِيِّ مِنِّي الْقَلْبُ وَالتَّجَنُّبُ
إِذَا اللَّهُ لَمْ يَعْدِرْكَ فِيمَا تَرُومُهُ
مَلَكَتْ بِحِذْمِي فُرْصَةً مَا اسْتَرْقَهَا
وَلَوْ لَا الْعَلِيُّ مَا كُنْتُ فِي الْحُبِّ أَرْغَبُ
فَمَا النَّاسُ إِلَّا عَاذِلٌ وَمُؤَنِّبُ
مِنَ الدَّهْرِ مَفْتُولُ الدَّرَاعَيْنِ أَغْلَبُ

فَإِنْ تَكُ سِنِّي مَا تَطَاوَلَ بِاعُهَا
فَحَسْبِي أَنِّي فِي الْأَعَادِي مُبَغَّضٌ
وَلِلْجِلْمِ أَوْقَاتٌ ، وَلِلْجَهْلِ مِثْلُهَا
يَصُولُ عَلَى الْجَاهِلُونَ ، وَأَعْتَلَى
يَرُونَ أَحْتِمَالِي غُصَّةً وَيَزِيدُهُمْ
وَأَعْرِضُ عَنْ كَأْسِ النَّدِيمِ كَأَنَّهَا
وَقُورٌ فَلَا أَلْحَانَ تَأْسِيرُ عَزَمَتِي
وَلَا أَعْرِفُ الْفَحْشَاءَ إِلَّا بِوَضْفِهَا
تَحْلُمُ عَنْ كَرِّ الْقَوَارِصِ شَيْمَتِي
لِسَانِي حَصَاةٌ يَقْرَعُ الْجَهْلُ بِالْحِجَتِي
وَلَسْتُ بِرَاضٍ أَنْ تَمَسَّ عَزَائِمِي
غَرَائِبُ آدَابِ حَبَانِي بِحِفْظِهَا

فَلِي مِنْ وَرَاءِ الْمَجْدِ قَلْبٌ مُذَرَّبٌ
وَأَنِّي إِلَى غُرِّ الْمَعَالِي مُحَبَّبٌ
وَلَكِنْ أَيْامِي إِلَى الْجِلْمِ أَقْرَبُ
وَيُعْجِمُ فِي الْقَائِلُونَ ، وَأَعْرَبُ
لَوَاعِجِ ضِعْفٍ أَنَّنِي لَسْتُ أَغْضَبُ
وَمِيضُ غَمَامٍ غَائِرِ الْمَزْنِ خُلْبُ
وَلَا تَمَكُّرُ الصُّهْبَاءِ بِي حِينَ أَشْرَبُ
وَلَا أَنْطِقُ الْعَوْرَاعِ وَالْقَلْبُ مُغْضَبُ
كَأَنَّ مُعِيدَ الدَّمِّ بِالْمَدْحِ مُطِيبُ
إِذَا نَالَ مِنِّي الْعَاضِيَةُ الْمُتَوَثِّبُ
فُضَالَاتُ مَا يُعْطَى الزَّمَانُ وَيَسْلُبُ
زَمَانِي وَصَرَفُ الدَّهْرِ نَعْمَ الْمُؤَدَّبُ

ويتجلى لنا الشريف الرضى رجل عزة وإباء وعزم ، ينظر إلى أصله وإذا
هو في دوحة العلياء من أكرم فرع ، وإذا هو مدعو إلى كل كبير عظيم ،
وإذا نفسه أهل لذلك العظيم ؛ وينظر إلى حاله وإذا هو غير ما دعى إليه وخلق
لأجله ، وإذا في نفسه حرب جبارة ، وثورة سخط ضخمة في وجه الزمان الذى
يعادى الأحرار ، وفي وجه الناس الذين يقومون في وجه كل عزيز طموح .
ويتجلى لنا الشريف حزيناً في قرارة نفسه ، متألماً في أعماق قلبه ، وذلك أنه
لا يستطيع القبول بالظلم ، والاستكانة للذل ، فهو ينتفض انتفاضة النسر الجريح ،
وينظر إلى خصومه بعين حادة يلتمع فيها الشر ، وقلب جرىء لا يخاف سيلاً

ولا مسوداً ؛ هكذا يتجلى لنا الشريف من خلال شعره ، فهو نفس كبيرة أبية ، وقلب رقيق شديد الأثقال ، وثاب إلى المعالي ، نباض في وجه الظلم ، جرىء على رفته ، بطاش على شدة انفعاله ، لا يخلو من زهو وكبرياء ، ولكن تلك الكبرياء هي أقرب إلى الأتفة منها إلى الكبرياء .

وقد أراد الشريف أن يقلد المتنبي في فخره ، فجاراه في نفحته الملحمية ، ونبضاته التوثبية ، وترفعه عن كل حقير دنى ، وإنه وإن لم يبلغه في قوة انطلاق شعره ، وفي سكه للأبيات سكاً شديداً الوقع ، فقد وجد من شرف أصله ، وسمو نفسه ، ومواهبه العالية ، وسجاياه النادرة ، ومقامه الاجتماعي ، ما لم يتوفر لأبي الطيب ، ولهذا فقد اتسع نطاق فخره ، وازدحمت معانيه ، وتنوعت أفكاره ، ولم يلجأ إلى الإخالة ليخفى ضعفاً أو أصلاً حقيراً أو مقاماً اجتماعياً غير لائق به . ومن ثم فقد كان فخر الشريف أقرب إلى النفس ، وأدخل في العقل ، وآنس للأذن .

وقد فخر الشريف بقومه وفخر بنفسه ، أما فخره بقومه فهو فخر العزة والإعجاب واللوعة ، فخر من ينظر إلى الدوحة الكريمة فيتعالى في سماها ، ويعرق بين أوراقها في عشق ووله ، ثم ينظر إلى ما قطع من أغصانها ومن قتل من آل البيت فتدوب نفسه أسى وينطلق لسانه شاكياً ، مهدداً ، وإذا شعره شدة ولين ، ومزيج من قسوة ورقة . وأما فخره بنفسه فهو تطلع إلى العلياء ، وتحديق بالجد والإباء ، وإعجاب بشجاعة القلب ، وفيض الشاعرية ، وانطلاق الآمال .

وإنك لتشعر ، في كلام الشاعر ، برفعة ترفعك إلى أجوائها ، ويجو ملحمي يحاول الشاعر أن يضحّم عناصر القوة فيه بالتشخيص والتثيل وتشديد اللفظ والقافية ؛ وإنك لتشعر أيضاً أن في نفس الرجل انصهاراً مؤلماً يرسل بين سطور الفخر آهات الشكوى والعتاب ، كما يرسل زيجرات السخط والتهديد ، وإنك تشعر على كل حال بانسجام رائع ، وعذوبة أخاذة ، وعمق في التفكير ، وبعد في اللحم . وتعجبك من الشريف صراحته وجراته ، كما يعجبك إيجازه وابتعاده

عن التفصيل والإسهاب . ويروقك اختيار الشريف لألفاظه ، وحسن تركيبه لأبياته ، فهي بدوية حضرية ، مركبة تركيباً حسن الوقع ، رائع الإيقاع .

المعري :

وأبو العلاء المعري هو فيلسوف الشعراء . له عدة قصائد في الفخر أشهرها قصيدتان : الأولى همزية ومطلعها :

ورائي أمام والأمام وراء إذا أنا لم تكبرني الكبراء

والثانية لامية ومطلعها :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل

والشاعر يفخر بنفسه ويقومه . أما نفسه فيفخر بصفاتها الأدبية من شجاعة وكرم وذكاء . وأما قومه فيفخر بسلطانهم على الشعر ، واستيلائهم على الأرض ، وغناهم عن الناس ، وافتقار الناس إلى معروفهم .

وأبو العلاء يكد ويجهد في البرهان عن مفاخره ، وكأنه يخشى من علته وقبح مظهره أن يحولا دون تقدير الناس له ، فينظم الشعر النابض بتزعات شخصيته القوية ولا يتخرج من المبالغة في التمدح . ويتأتى له في موقفه هذا أبيات حكمية يتجلى فيها فضل الروح على المادة ، وفضل الغنى الداخلي على الثروة المادية ، فيقول مثلاً :

وإن كان في لبس الفتى شرف له فما السيف إلا غمدُه والحمائلُ

الطغرائي :

أما الطغرائي فله في الفخر قصيدة شهيرة عرفت بلامية العجم ومطلعها :

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وحليّة الفضل زانتني لدى العطل
مجدى أخيراً ومجدى أولاً شرع والشمس رأداً الضحى كالشمس في الطفل

فيمَ الإقامةُ بالزُّوراءِ لا سَكْنى فيها ولا ناقتى فيها ولا جَمَلِي

وهذه القصيدة من أروع ما كتب في الفخر وعزة النفس . وقد أودعها الشاعر ثورة نفسه أمام الحدثان ، وراح فيها يفصل أمجاده ، ويصور طوايا تلك النفس ، ويتوثب توثباً حافلاً بالقيم المعنوية ، حافلاً بالرصانة المتجبرة ، التي لا تذللها الصعاب ولا تلوى بها الأيام ، في انطلاق شعري مملوء بالإبداع .

الفخر الذاتي بعد العهد العباسي

وصل الفخر الذاتي سيره عند العرب ، وقد أخذ يتقلص ظلّه شيئاً فشيئاً ويتضاءل في العصور المتأخرة ، لانتشار الحضارة الحديثة وازدياد الوعي الشخصي . ولئن سمعت له أصداً من آن إلى آخر فما ذلك إلا ترديد للنغمات السابقة والأساليب السابقة في غير انطلاق ولا عمق .

الفصل الثاني

الفخر الحزبي

نما هذا النوع من الشعر في العهد الأموي ، وقد اصطبغ بصبغة السياسة ، وذلك أنه لما بويغ على بن أبي طالب وقع خلاف سياسي شديد في شأن الخلافة ، وقد اتهم على بن رباح في القبض على قتلة عثمان بن عفان ، وقام في وجهه ابن الزبير يناصبه العداوة ، كما قام في وجهه معاوية بن أبي سفيان يطالب بدم عثمان ويطمع في الملك ، وقام في وجهه علي ومعاوية حزب الخوارج يحارب هذا وذاك . وهكذا انقسم العرب أحزاباً ، فمن شيعة يناصرون بيت علي ، إلى زبيريين يشايعون آل الزبير ، إلى خوارج ينهضون في وجه الاستبداد ، إلى أمويين على عرش الخلافة يذودون عن سلطانهم بشدة ، وهكذا كان لكل حزب شعراء يساندونه بأقلامهم ، وكان شعرهم حماسياً شديداً اللهجة لأنه شعر العواطف المتناحرة في سبيل الحياة والدين والحرية والسيادة . ومن أولئك الشعراء قطري ابن الفجاءة ، وعمران بن حطان ، والطرماح بن حكيم ، وعمرو بن الحصين للخوارج ، والكميت الأسدي وكثير عزة للشيعة ، وعبيد الله بن قيس الرقيات للزبيريين ، وأبو العباس الأعمى وأعشى ربيعة والنابغة الشيباني وعدى بن الرماح وكعب الأشقرى للأمويين .

وإلى جنب هؤلاء جميعاً ثلاثة شعراء هم في الدروة لذلك العهد ، أعنى جرير الأخطل والفرزدق وجريراً . وإن لم يكونوا من شعراء السياسة بكل ما في الكلمة من معنى ، لتغلب العصبية القبلية عليهم ، قد عاشوا في ظل بني أمية واتصلوا بالأحزاب السياسية ورأوا فيها وسيلة يتدفعون بها للوصول إلى غايتهم القبلية ،

ثم إنهم في ملاحياتهم الشهيرة مزجوا الفخر الذاتي بالفخر الحماسي والفخر الحزبي ولذلك لم نر بأساً في التعرض لهم في هذا الباب .

ولإننا إذا ألقينا نظرة على الفخر الحزبي في هذا العهد نرجع بما رجع به الدكتور زكي المحاسني إذ قال : « لا يكاد يأخذ بإعجابي وصف حرب قاله أحد شعراء العصر الأموي ، فأرى خلاله رهط المقاتلين يتلاحمون بين الحياة والموت ، وألمح لمعات الأسنة والسيوف تقع في اللبات والنحور ، وأسمع زمازم الجيش تمور في حومة الوغى ، حتى يعكر على صفاء هذه الصورة وبراعة هذا الوصف أبيات في أواخر القصيدة أو في أثنائها ، يحاول بها الشاعر أن يعنى على آثار قوم آخرين في الشجاعة والبأس . وقد لا يتورع عن إيدائهم بالهجاء ، وسلبهم كل خصال المروءة والحمية التي عرفت فيهم . فهو أبدأ يسعى إلى إعلاء قومه ، فيخلع عليهم صفات المكارم والفضائل ، وينزعها عن سواهم ، حتى بات كثير من أقوال هذه الطائفة من الشعراء منوطاً علاؤه بخفض غيرهم . وكلما زاد تهجين الشاعر لأعدائه وذمه إياهم ، انطلق جناحاه في أجواء الثناء على نفسه وعلى قومه . وقد تأثر الشعر العربي من فواتحه إلى خواتيمه في شعر الفخر ، فوجدته يمضي على هذا الغرار في عصر بني أمية . فإذا كان الشعر في وصف الحرب تناول قائلوه هذه الطريقة ، فذموا شجاعة غيرهم ومدحوا أنفسهم وبطولتهم . وقد لا يظل هذا المدح والهجاء في قصيدة الشاعر الواحد ، وإنما يتجاوزانه إلى أكثر من شاعر ، فينبى من يقول قصيدة أو أبياناً في ذم خصومه في الحرب ، وحمد قومه ، فيتصدى له شاعر آخر يرد عليه بدمه ومدح نفسه وقومه ، ثم يدخل آخرون في الحلقة بمثل ديدن السابقين ، فتصبح معالم الوصف الصادق مشوهة على من جاء يتقرى ، فيحار متلمساً أى قوم أشجع وأفتك ، وأشد بأساً في وقعة ، وأى معشر فيهم سجايا الفروسية ، ولأى كتب النصر ؟ » .

١ - شعر الخوارج :

شعر الحرب عند الخوارج صورة ثورة دينية عنيدة ، وصورة شجاعة جبارة ؛ هو شعر كتب بشعار السيوف ، ورؤوس الرماح ؛ هو شعر الاستماتة في سبيل الغاية المثلث التي يناضلون لأجلها ، والتي يحسمونها في قولهم أبداً : « لا حكم إلا لله ! » وقطرى بن الفجاءة هو ذلك الشاعر الذي يضطرم شعره حماسة وإقبالاً ، وهو الذي خاض المعارك في بطولة ما بعدها بطولة ، وقد اشترك في حرب « دولاب » التي جهز إليها ابن الزبير أمير البصرة جيشاً لجباً ، والتي دامت عشرين يوماً . وقد انتصر الخوارج انتصاراً عظيماً ، فقال ابن الفجاءة ذاكرة زوجته أم حكيم وواصفاً الحرب :

لعمرك إنني في الحياة لزاهدٌ وفي العيش ما لم ألق أم حكيم ..
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرتُ طعاناً فتى في الحرب غير ذميم ..
غداة طغئت في الماء بكر بن وائلٍ وعجنا صدور الخيل نحو تميم ..

هكذا كان قطرى بن الفجاءة : عقيدة ثابتة ، وشجاعة فوارة . فهو رجل تدين ، وهو رجل حرب ، وشعره حافل بالروح « التي تزجر المتخاذلين ، وتنضح بالقتال » ، لأن الحياة زائلة ، وشرف الموت على حد السيوف أعز وأبقى . أما عمرو بن الحصين فهو من شعراء الخوارج أيضاً وقد شهد يوم قديد - وهو مكان بالقرب من المدينة - ووصف الخوارج في حربهم تلك .

ب - شعر الشيعة :

كان أهل الشيعة في شعرهم الحربى أقل فروسية من الخوارج ، وكانوا ذوي ثورة وطمع في الخلافة ، ولذلك وجه إليهم بنو أمية أشد ضرباتهم . وشعر الشيعة

هو شعر السخط والحزن ، وهو يرمى إلى الجهاد في سبيل الخلافة ، وذلك في أسلوب يتقلب بين الهدوء والثورة ، والزقة والحزن ، بحسب ما تقتضيه حال الاحتجاج أو الغضب أو الألم .

وللكميت بن زيد الأسدي الشاعر الشيعي في هاشمياته قصيدتان رائعتان في الحرب ، قال في إحداهما واصفاً أبطال شيعة :
 . . .

فَهُمُ الْأَسَدُ فِي الْوَغَى لَا اللَّوَاتِي	بين خيس العرين والآجام
أَسَدُ حَرْبٍ غَيُوثُ جَذَبٍ بَهَالِيهِ	لُ مَقَاوِيلُ غَيْرِ مَا أَفْدَامِ
سَادَةٌ ذَادَةٌ عَنِ الْخُرْدِ الْبِي	نَحْنُ إِذَا الْيَوْمُ صَارَ كَالْأَيَّامِ
لَا كَعَبْدِ الْمَلِكِ أَوْ كَوَلِيدِ	أَوْ سُلَيْمَانَ يَغْدُو أَوْ كَهْشَامِ

ح - شعر الزبيريين :

لقد أنكر الزبيريون على بني أمية جعلهم الخلافة وراثية فيما بينهم دون سائر قريش . وكانوا من العاملين في سبيل الأرستقراطية .

وشعر ابن قيس الرقيات حافل بوصف قتال الزبيريين وإقدامهم ، حافل بوصف بطولته ، مملوء بالحماسة والفروسية . قال يمدح ابن الزبير وأخاه مصعباً :

وَالزَّبِيرُ الَّذِي أَجَابَ رَسُولَ اللَّهِ	ه فِي الْكَرْبِ وَالْبَلَاءِ بِلَاءِ
وَالَّذِي نَغَصَّ ابْنُ دُومَةَ مَا تَو	حَى الشَّيَاطِينِ ، وَالسِّيُوفُ ظِمَاءِ
فَأَبَاحَ الْعِرَاقَ يَضْرِبُ بِالْمُنْدِ	مَلَّ صَلْتاً ، وَفِي الضَّرَابِ غِلَاءِ
إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنْ اللَّهِ	ه تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءِ
مُلْكُهُ مُلْكُ قُوَّةٍ لَيْسَ فِيهِ	جَبَرُوتٌ وَلَا بِهِ كِبَرِيَاءِ

ولما فر الشاعر من وجه بني أمية والتحق بفلسطين نازلاً على أهل له من بني كنانة ، نظم قصيدة استهلها بالغزل ثم فخر بقومه وفروسيته ، قال :

حَلَقُ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ حَوْلِي بِفِلَسْطِينَ يُسْرِعُونَ الْكُوبَا
مِنْ رِجَالٍ تُفْنِي الرِّجَالَ وَخَيْلٍ رَجُمَ بِالْقَنَا تَسُدُّ الْغُيُوبَا
لَا يُبَالُونَ مَنْ أَقَامَ إِذَا مَا كَشَفُوا بِالسُّيُوفِ يَوْمًا عَصِيبَا
إِنَّ قَوْمَ الْفَتَى هُمُ الْكَتَرُ فِي دُزْ يَاهُ وَالْحَالُ يُسْرِعُ الثَّقَلِيْبَا ..

إلى غير ذلك مما حفلت به قصائد الشاعر وما يطلعنا على موقفه وهو القرشي الأصل ، الزبيرى الهوى ، الذى مدح عبد الله بن الزبير فى حربه وفى سلمه ، والذى أراد لقومه العزة والسلطان ، وصارح بنى أمية العداوة ، وكان بوقاً مدوياً على كل حال .

د - شعر الأمويين :

رأى الناس فى الأمويين رجال سياسة ، وطلاب دنيا وملك ، اعتمدوا على قوة السيف والمال والعقل فى تأييد عرشهم ، فجئح إليهم الشعب طمعاً فى ما لهم أو خوفاً من بأسهم . وكان أكثر الشعراء المنتمين إلى حزبهم من ذوى المنفعة ، الذين يمدحون ملوكهم لأجل الطمع أو الخوف ، وليس فى شعرهم كثير جدّة من الناحية الفنية ، فهو يدور حول المديح بالصفات العامة كالكرم ، والحلم ، وحسن السياسة ، والمجد القديم ، والخط المواتى وما إلى ذلك . ومن أخلص الشعراء عاطفة لبني أمية كعب الأشقرى ، الذى كان من أعظم وصافى الحرب فى العصر الأموى .

* كعب الأشقرى : هو من الشعراء الفرسان الذين اشتركوا فى الفتح وشهدوا حروب الأزارقة . وقد نظم قصيدة مشهورة وأنشدها فى حضرة الحجاج لما تغلب المهلب بن أبى صفرة على الخوارج . وهى قصيدة تقع فى أربعة وثمانين

بيتاً ، وتدور كلها حول الحرب ووصف القتال تتبع فيها الشاعر جيش بني أمية وجيش الخوارج في مختلف المواقف ، في لهجة حماسية شديدة ، وإليك شيئاً منها :

يا حفص إني عدائي عنكم السفر
علقت يا كعب بعد الشيب غانية
واشتدت الحرب والبلوى وحل بنا
تلبسوا لقراع الحرب بزتها
ساروا بألوية للمجد قد رفعت
قتلى هنالك لا عقل ولا قود
باتت كتائبنا تردى مسومة
عبوا جنودهم بالسفح إذ نزلوا
لاقوا كتائب لا يخلون ثغرهم
صفان بالقاع كالطودين بينهما
يمشون في البيض والأبدان إذ وردوا
وشيخنا حوله منّا ملهمة
ندوسهم بعناجيج مجففة
في معرك تحسب القتلى بساخته
في كل يوم تلاقى الأزد مفضة

وقد أرقنت فأذى عيني السهر
والشيب فيه عن الأهواء مزدجر
أمر تشمر في أمثاله الأز
فأصبحوا من وراء الجسر قد عبروا
وتحتهن ليوث في الوغى وقر
منّا ومنهم دماء سفكها هدر
حول المهلب حتى نور القمر
بكازون فما عزوا ولا ظفروا
فيهم على من يقاسى حربهم صعر
كالبرق يلمع حتى يشخص البصر
مشى الزوامل تهدي صفهم زمر^(١)
حي من الأزد فيما نابهم صبر
وبيننا ثم من صم القنا كسر^(٢)
أعجاز نخل زفته الريح ينقعر
يشيب في ساعة من هولها الشعر

(١) الزوامل : الإبل المحملة .

(٢) العناجيج : جياذ الخيل والإبل .

والأزد قوى خيارُ القومِ قد علموا إذا قرومهم يوم الوغى خطرُوا
 حىُّ بأسيا فهم يبغونَ مجدَهُمُ إنَّ المكارمَ فى المكروه تبتدرُ
 لولا المهلب للجيش الذى وردوا أنهار كerman بعد الله ما صدرُوا

ويمضى كعب الأشقرى فى ملحمة هذه ، وإذا أنت أمام حرب طاحنة
 يشيب لها الشعر ، وقد التقى الجيشان فى زرد الحديد ، وفوقهم البنود خفاقة ،
 وتحتهم الخيول المطهمة . والجيشان طودا قوة وشجاعة وبأس . ولما اعتصم
 الخوارج وراء الجسر ، جاز إليهم الأمويون ، فالتحم القتال ولعت السيوف ،
 وانقض الهول انقضا الصواعق ، وجرت الدماء سيولا ، فانسحل الخوارج
 من المعركة ، فاتبعهم جيش بنى أمية ، وعاد القتال إلى الالتحام ، واشتدت
 الحال على الخوارج ، فهلك منهم عدد كبير ولاذ الباقون بالفرار .

وهكذا كان الأشقرى من أعظم وصافى الحرب فى العهد الأموى ، وهكذا
 كانت قصيدته من أروع القصائد الحربية لأنها جمعت الاستيفاء ، إلى الدقة ،
 إلى التدفق والانطلاق ، إلى الواقعية المضحمة تضخما ملحيميا لا يخرج عن
 حدود المعقول ، إلى تفصيل مواقف الجيشين وتتبع حركاتهما فى لفة وصدق
 عاطفة ، إلى الاعتراف بمناعة صفوف الأعداء وحسن بلائهم فى الطعان .

ولئن فخر الأشقرى بقومه الأزد فإنه كان من الشعراء النادرين الذين أخلصوا
 العاطفة لبنى أمية فصدقوا فى وصف حروبهم ، ومدحهم بما كانوا له أهلا من
 الفعال والحصال الحميدة .

هـ - شعر المثلث الأموى :

وهناك شعراء ثلاثة عرفوا بالمثلث الأموى ، وكان مدار فخرهم حول الذات

والقبيلة والحزب .. وهم الأخطل والقرزوق وجريير .

والحزب والفخر في شعر الأخطل محل واسع ؛ أما الحرب فقد أتى منها على ذكر عدة مواقع كانت لقومه على أعدائهم . ذكر يوم الثرار - وهو واد عظيم في الجزيرة السورية يمده الماء في الشتاء - وقد دارت رحى القتال فيه بين بني تغلب وقبائل القيسية ، وكان يوماً شديداً الوطأة ، يوماً اربدت سماؤه ، وانتشر الموت في صفوف المتقاتلين انتشاراً عظيماً ، وجرت الدماء على الأرض سيولاً ، وأثبت كل بطل في مستنقع الموت رجله ، وقال لها من تحت أخمصك الحشر .

وذكر الأخطل يوم « إراب » وكان النصر فيه لقوم الأخطل على القيسية وقوم جريير ، فقال :

ولقد سما لكم الهديل فنالكم	بإراب حيث يقسم الأنفالاً (١)
في فيلق يدعوا الأراقم لم تكن	فرسانه عزلاً ولا أكفلاً (٢)
بالخيل ساهمة الوجوه كأنما	خالطن من عمل الوجيف سلالاً
فسقين من عادين كأساً مرة	وأزلن حد بني الخياب فزالاً
فأنعق بضائك يا جريير فإنما	منتك نفسك في الخلاء ضلالاً

وأما فخر الأخطل فقد اصطبغ بالصبغة السياسية ، وهو يدخل في المدح والهجاء مظهراً لبني أمية ما لتغلب من الأيادي البيض ، ومظهراً ما لصاحبه من كرم الأصل ومن التفوق على خصمه . واصطبغ فخر الأخطل أيضاً بالصبغة الجاهلية التي تعتمد تعداد الأجداد القبلية في النقص ، والتي لمسناها في شعره الحربي قال :

(١) الهديل : هو الهديل بن هيرة التغلبي .

(٢) الأكفال ج كفل وهو الرجل يكون في مؤخر الحرب همه التأخر والفرار .

بَنَى أُمِّيَّةً قَدْ تَاضَلَتْ دُونَكُمْ . أَبْنَاءُ قَوْمِهِمْ آوَا وَهُمْ نَصَرُوا ^(١)
 أَفَحَمَّتْ عَنْكُمْ بَنَى النَّجَارِ قَدْ عَلِمَتْ . عَلِيًّا مَعَدَّ وَكَانُوا طَالَمَا هَدَرُوا ^(٢)
 حَتَّى اسْتَكَانُوا وَهُمْ مَنَّى عَلَى مَضْمُنٍ . وَالْقَوْلُ يَنْفُذُ مَا لَا تَنْفُذُ الْإِبْرُ

أما فخر الفرزدق فقد قيل فيه :

« ديوان الفرزدق في حقيقته يكاد يكون دفاعاً خالصاً عن قومه ، وتمجيداً
 غالباً ، فهو أشبه ما يكون بخطبة أو خطب ، قيلت في مدحهم والفخر بهم فخراً
 لا تجف مادته في نفسه ، إذ كان يستمد من معين لا ينضب ، وكأنه يغرف من
 بحر تمده أبحر ، فهو لسان قبيلته ، وسحب الفخر بها ما تزال تنعقد شعراً على
 هذا اللسان الرطب برائع القول وجزله » .

والفرزدق يجعل قصائد الهجو في جو وسيع من الفخر والتبجح ، وقد
 يفتتحها بالفخر . فيأتي خصمه أبداً من عل ، ولهذا قيل : « الفرزدق إذا هجا
 ارتفع » . يرتفع على جرير خصوصاً ، وكان جرير من أحقر بيوت تميم ،
 والفرزدق من أشرفها ؛ فكلما أقبل الفرزدق على هجائه تعالى عليه ، ووازن بين
 الشرف والحقارة ، وأخذ بتعداد آبائه وأجداده ، مفصلاً ما أثرهم في الجاهلية
 والإسلام . وهكذا كان قومه في نظره أعز العرب بيتاً ، وأرفعهم شرفاً ، وأوسعهم
 خيراً وكرماً . هم ذوو العقول التي توازي الجبال ، والثبات الذي لا يتزعزع ،
 والشجاعة التي تفوق كل شجاعة . . . وهكذا كان هو في نظر نفسه كريماً
 كالبحر ، شجاعاً كالأسد ، ربيعاً كالبدري ، مؤلاً كالحية ، قد ورث الشعر
 من امرئ القيس والمهلهل وطرفة والأعشى وغيرهم من كبار الشعراء .

(١) يعني الأنصار .

(٢) بنو النجار : قوم من الأنصار منهم الشاعر حسان بن ثابت . عليا معد : يريد بني قريش .

وإذا فخر الفرزدق اتسعت آفاقه ، واشتدت لهجته ، وطال نفسه ، وقويت عبارته ، ولكنه يضطرب في ميدان قلما يتبدل ، ويأتى بمعان قليلة التنوع .

وقد مزج جرير المدح بالفخر ، والهجاء بوصف الحرب وذكر الأيام ، وأكثر من وصف الخيل وتصوير الفروسية .

وهكذا فخر جرير بسيفه ولسانه ، وإذا سيفه أمضى السيوف وإذا لسانه شديد الوطأة :

جَرَى الْجَنَانِ لَا أَهَابُ مِنَ الرَّدَى إِذَا مَا جَعَلْتُ السَّيْفَ قَبْضَ بَنَانِيَا
وليس لسيفي في العظام بَقِيَّةٌ وللسَّيْفِ أَشْوَى وَقْعَةٍ مِنْ لِسَانِيَا

هذا هو سيف جرير ، وهذا لسانه ، وللسيف عنده أنجع من اللسان في رقاب جماعة أضاعوا الشرف ، وأضاعوا كل إحساس أمام كلمة تُقال ، ولوم يوجه ، وهجاء ينشر . وسيفه بتار يمدد قلب جرىء ، وساعد شديد ، ونفس لا تهاب الموت .

وهكذا فخر جرير بشاعريته التي تنقض على الشعراء بالصواعق فتريدهم صفوفاً صفوفاً ! وفخر بإسلامه ومضريته — وفي مضر النبوة والخلافة — ، وتعالى بهما على الأنخل التغلبي وقال :

إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ الْمَكَارِمَ تَغْلِيًّا جَعَلَ الْخِلَافَةَ وَالنُّبُوَّةَ فِينَا

وإذا هجا الفرزدق اصطدم بأصله ، وأصل الفرزدق من أصله ، وكلاهما من تميم ، وتميم أصل كريم ، وشجرة باسقة الأغصان ، وفروة من ذرى المجد :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غَضَابَا

إلا أن نتمم فروغاً عدة ، وفروع الفرزدق أشرفت من فرع جرير ، ولهذا لم يستطع جرير أن يطاول الفرزدق في الآباء والأجداد ، ولم يستطع أن يحول معه في هذا الميدان جولات واسعة ، فاكفى بذكر بعض الأيام التي كانت لبني يربوع قومه ، كما أعين على الفرزدق أيام خذل فيها قومه بنو دارم وأخواله بنو ضبة .

وإذا هجا جرير الأخطل ذكر حروب قومه وهم حلفاء القيسية وذكر مواقفهم مع بني تغلب وقال :

ونعرف حق النازلين ولم يزل
على مقربات هن معقل من جنى
ألا رب جبار وطئن جبينه
وقد أوردت قيس عليك ونخيل
فوارسنا يحمون قاصية السرب
وسم العدى والمنجيات من الكرب
صريعاً ونهب قد حوين إلى نهب
فوارس هدمن الحياض التي تعجى

أما فخر جرير فكان استعلاء وتعبيراً ، وكان ممزوجاً بالهجاء ، وكان انقضاضاً صاعقاً مدوياً ، يحفل بالعاطفة الصاخبة القوية ، وتعصف به موسيقى حرية أخاذة .

* * *

تلك كانت مظاهر الفخر في العهد الأموي ، وقد تطاحت فيه الأحزاب تطاحناً شديداً ؛ وإن من تتبع الشعر العربي في هذا العهد يجده شديد الاقتراب من الشعر الجاهلي في حقل الحماسة والفخر ، شديد النزوع إلى ذكر الأيام وتعداد الأعجاد ؛ وهو إلى ذلك قد امتاز بانثاع الآفاق الاجتماعية والسياسية والدينية ، وازداد غلواً وإغراقاً في وصف الحروب وأدواتها ، وازداد تتبعاً لحركات الجيوش ، كما ازداد نزوعاً إلى التعبير بالمجازي ، والإقذاع في ذلك التعبير .

الفصل الثالث

الفخر الديني أو الحماسة الدينية

لما جاء الإسلام ضم العرب تحت لواء واحد ، ودعاهم إلى بسط سلطانه ، فكانت الخطوة الأولى في ذلك « غزوات » الرسول (صلعم) ، ثم كانت الخطوات الأخرى حروب الفتح ، وكان الميدان واسعاً جداً يمتد من شبه الجزيرة ، إلى مصر إلى العراق ، إلى الشام ، إلى فارس ، إلى أوروبا ؛ وكان الأبطال ورجال الحرب والسياسة كوكبات كوكبات ! وكان العراك شديداً ، والجيش جرارة ، وكان الشعر ينطلق مدوياً ، وهو لا يختلف في شيء عن الحماسة الجاهلية إلا في مصدره الديني ، وصبغته الدينية الجليلة ، وخروجه عن حدود الفردية والقبلية إلى أجواء القومية العربية الإسلامية .

ومما يروى في هذا الصدد أن عياض بن غنم كتب إلى خالد بن الوليد يستنجد به حين كان يحاصر « دومة الجندل » ، فكتب إليه خالد : من خالد إلى عياض : إياك أريد .

لَبِثَ قَلِيلاً تَأْتِكَ الْحَلَالِبُ يَحْمِلْنَ آسَادَ عَلَيْهَا الْقَاشِبُ (١)

كَتَائِبٌ تَتْبَعُهَا كَتَائِبُ

ولما تغلب المشي بن حارثة الشيباني ، في عهد عمر بن الخطاب ، على الفرس

(١) الحلالب : النوق . القاشب : السيف الثقيل .

في موقعة « البويب » بالعراق ، وقتل مهران قائدهم ، قال الأعور الشنّي مشيداً
ببطولة المشي بن حارثة :

هَاجَتْ لَأَعُورَ دَارُ الْحَيِّ أَحْزَانَا وَاسْتَبَدَلْتُ بَعْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ هَمْدَانَا
وَقَدْ أَرَانَا بِهَا وَالشُّمْلُ مَجْتَمِعٌ إِذْ بِالنُّخَيْلَةِ قَتَلَى جَنْدِ مِهْرَانَا (١)
أَزْمَانَ سَارَ الْمَشْنَى بِالْخُيُولِ لَهُمْ فَقُتِلَ الْقَوْمُ مِنْ فُرْسٍ وَجِيْلَانَا
سَمَا لِأَجْنَادِ مِهْرَانٍ وَشِيعَتِهِ حَتَّى أَبَادَهُمْ مَشْنَى وَوَحْدَانَا
مَا إِنْ رَأَيْنَا أَمِيرًا بِالْعِرَاقِ مَضَى مِثْلَ الْمَشْنَى الَّذِي مِنْ آلِ شَيْبَانَا
إِنَّ الْمَشْنَى الْأَمِيرُ الْقَرْمُ لَا كَذِبٌ فِي الْحَرْبِ أَشْجَعُ مِنْ لَيْثٍ بِخَفَانَا (٢)

وفي يوم « مؤتة » ، وقد قاتل العرب قوماً يفوقونهم عدداً ، واستماتوا في ساحة
الحرب بل مات أبطالهم جميعاً الواحد بعد الآخر ، وكان كل منهم يحمل راية
المسلمين ، وقف عبد الله بن رواحة يقول وفي يده الراية :

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّ لَتَنْزِلَنَّ أَوْ لَتُسَكَّرَهِنَّ
إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدَّوْا الرِّزَّةَ مَالِي أَرَاكِ تَكْرِهِينَ الْجَنَّةَ
يَا نَفْسُ إِلَّا تُقَتِّلِي تَمُوتِي هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صُلِيَتْ
وَمَا تَمْنَيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدَيْتِ
ثُمَّ ظَلَّ يُقَاتِلُ حَتَّى قَتَلَ .

وفي يوم القادسية نسمع أبا محجن الثقفي يتغنى بحسن بلائه ويقول :

(١) النخيلة : مكان بالعراق قرب نهر البويب .

(٢) خفان : مأسدة مشهورة قرب الكوفة .

لقد عَلِمَتْ ثَقِيفٌ ، غيرَ فَخْرٍ ، بِأَنَا نَحْنُ أَكْرَمُهَا سِيُوفًا
وَأَكْثَرُهُمْ دروعًا سابِغَاتٍ وَأَصْبِرُهُمْ إِذَا كَرِهُوا الْوُقُوفًا
فَإِنْ أَحْبَبَ فذلِكُمْ بِإِلَهِ وَإِنْ أَتَرَكَ أَذِيقَهُمُ الْحَتُوفَا

وهكذا نسمع الشعر يملأ الأجواء متغنياً بانتشار الدين الحديد ، في لهجة حافلة بعزة النصر ، والإيمان الحى ، والشجاعة المقعدة على العقيدة الثابتة . وإن في ما وجه إلى الرسول (صلعم) من مدائح ، روائح فخريّة حماسية تهز النفوس والقلوب هزاً .

ومن ذلك قول النابغة الجعدي :

خَلِيلِيَّ عُوجًا سَاعَةً وَتَهْجُرًا وَنُوحًا عَلَى مَا أَحْدَثَ الدَّهْرُ أَوْ ذَرَا
وَلَا تَجْزَعَا إِنْ الْحَيَاةُ ذَمِيمَةٌ فَمُخَفًّا لِرُوعَاتِ الْحَوَادِثِ أَوْ قِرَا
وَإِنْ جَاءَ أَمْرٌ لَا تُطِيقَانِ دَفْعَهُ فَلَا تَجْزَعَا مِمَّا قَضَى اللَّهُ وَاصْبِرَا
أَلَمْ تَرِيَا أَنَّ الْمَلَامَةَ نَفْعُهَا قَلِيلٌ إِذَا مَا الشَّيْءُ وَلَّى وَأَدْبِرَا
تَهْجِجُ الْبَكَاءِ وَالنَّدَامَةُ ثَمَ لَا تَغَيِّرُ شَيْئًا غَيْرَ مَا كَانَ قُدْرَا
أَنْتِ رَسُولُ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهَدَى وَيَتَلَوُ كِتَابًا كَالْمَجْرَّةِ نِيرَا
أَقِمْ عَلَى التَّقْوَى وَأَرْضَى بِفَعْلِهَا وَكَنتُ مِنَ النَّارِ الْمَخُوفَةِ أَحْدَرَا

ومنها في الفخر :

وإِذَا لِقَوْمٌ مَا تَعُودُ خَيْلُنَا - إِذَا مَا التَّقِينَا - أَنْ تَحِيدَ وَتَنْفِرَا
وَنُنْكَرُ يَوْمَ الرُّوعِ أَلْوَانَ خَيْلُنَا مِنْ الطَّعْنِ حَتَّى نَحْسِبَ الْجَوْنَ أَشْقَرَا !

بَلِّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَجُدُودُنَا وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا
 وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بِوَادِرٍ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا
 وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَلِيمٌ إِذَا مَا أَوْرَدَ الْأَمْرَ أَصْدَرَا

* * *

وإننا نستطيع أن نضيف إلى هذا الفخر الديني ما نظمته الشعراء على ممر
العصور من المدائح النبوية وما إلى ذلك ، من مثل البردة للبوصيري ونهج البردة
 لأحمد شوقي ، وإننا نلمس في تلك القصائد من الحماسة الدينية الصادقة ومن
 الروعة الشعرية والبيانبة ، ما يجعل لتلك القصائد محلاً مرموقاً في عالم الأدب .

الفصل الرابع الفخر الحماسى

فطر العربى على الحماسة كما فطر عليها كل إنسان ، وذلك أن حب الحياة حمل الناس على النزاع فى سبيل الحياة ، وإذا الأرض ميدان واسع لتنازع البقاء ، وإذا الناس اثنان : غاز ومغزو ؛ أو هم بالحرى تارة مغزون وطوراً غازون . وهم فى كل حال جماعة جلاّد وقتال ، يقوم فيما بينهم من يبوّق لذلك القتال ، ويدعو إليه ، ويبث الحماسة فى صدور الأبطال ، أو يسجل المواقع بكلام منظوم هو الشعر الحماسى . وهذا الشعر الحماسى نشأ عند جميع الشعوب نشأة بدائية مقطعة الأوصال ، يرافق نبضات القلوب ، وغضببات السيوف ، ثم راح مع الأيام ، عند الشعوب المتقدمة فى سبيل المدنية والوعى ، يصور دأى الذكريات وروائع المشاهد ، ويتغنى بالبطولات القومية ، ويعلق أطرافها بأعمال بطل من الأبطال ، ويضخم المواقف ، ويرفعها إلى أجواء الخوارق ، فى قصص مملوءة بالحياة ، وفى وصف رائع الألوان ، وهكذا كانت الملحمة .

ولأكثر أمم الأرض ملاحم شعرية سطرت فيها الأجداد القومية ، وخلال العظمة التى ورثها الأبناء عن الآباء ؛ فلاّمة اليونان إلياذة هوميروس وأوديسته ، وفيهما إحياء الحرب الطروادية مضخمة ، ولأمة الرومان إلياذة فرجيليوس وفيها ذكر مغامرات البطل إيناس جد روموس ورومولوس ؛ ولأمة الهنود ملحمة الرامايانا للشاعر قالميكى فى ثمانية وأربعين ألف بيت من الشعر ، وفيها الشئ الكثير من تاريخ الهند القديم ؛ ولهم أيضاً ملحمة المهابهارتا فى نحو مائة ألف بيت من الشعر ، ولأمة الفرس شاهنامه الفردوسى وهى سفر تلك الأمة وسجل أعمال

الأكاسرة وأعمال أبطال فارس ، ولأمة الألمان ملحمة النيبيلونغايد وهى من آثار القرن الثالث عشر للميلاد ، وقد دارت حول بطولات الفتي المغوار سيغفريد وحول مغامراته الغرامية ، ولأمة الفرنسيين ملحمة رولان التى ضمت مجد فرنسا فى عصورها القديمة .

وهكذا كان لكل أمة من تغنى بأعجادها ، وهكذا كانت الملحمة قصة شعرية لأعمال بطولة خارقة . ولئن فات العرب أن ينشثوا ملحمة ، وأن يقوم فيما بينهم من يجمع شعرهم الحربى ويربط بين أجزائه ، وفى وحدة عمل قصصى ، وفى وحدة هدف وغاية ، ولئن حال دون ذلك ، عند العرب ، قلة انطلاقتهم وراء التخيلات الميثولوجية والخوارق الغيبية ، وضعف صبرهم على الحديث الطويل والرواية التى تطلب جلدأ وتحليلاً وإعمال فكر وسعة خيال ، وخروجاً عن حيز الذات والمنفعة القريبة المنال ، ولئن حال دون ذلك عندهم انصراف شعرائهم إلى استخدام الشعر للتعيش عن أقرب سبيل ، وإلى جعل الأدب فى خدمة البلاط والمناسبات ، فلم يفهم أن يخوضوا المعارك بأقلامهم ، وأن يسردوا القصص الحربى ويصفوا مواقف القتال ، وأن يجعلوا أنفسهم على المسرح مفاخرين ، متوثبين ، منفعلين ، على غير سنة الملاحم التى تطلب من الشاعر أن يكون راوية يروى أعمال غيره . وأن يسير العمل من وراء الستار .

وهكذا ، إن حرم الأدب العربى الملحمة المشبهة للملاحم الأهم المشهورة ، فلم يحرم تلك الملحمة الكبرى من الشعر الحماسى ، إلا أن تلك الملحمة مقطعة الأوصال ، قد اشترك فى وضعها عدد لا يحصى من الشعراء ، وقد عمل على جمع شتاتها عدد من الأدباء من مثل أبى تمام والبحترى وغيرهما ، فى دواوين كبرى تورد القصيدة أو المقطوعة إلى جنب القصيدة أو المقطوعة ، من غير ما واصل إلا واصل الجوار والموضوع الواحد . ولو أتيح لتلك القصائد من يؤلف ويربط لكان للعرب من عنبرة القوارس ، وجساس بن مرة ، وكليب بن ربيعة ، والحارث

ابن ظالم ، وغيرهم أشباه آشيل وأغا ممنون عند اليونان ، ورستم والأسفنديار عند
الفرس ، ورولان عند الفرنسيين .

ولا سيما — على حدّ قول زكى المحاسنى — « وإنّ في المعلقة الجاهلية
العشر ، وفي سائر ما نظم الشعراء الجاهليون ، لما يتنخل منه ملحمة عربية
كبيرة قيلت في الجاهلية . لأنّ خواطر أصحابها الشعراء متقاربة ، بل تكاد تكون
متحاذية ومتشابهة . وقد يفضّل الشبه بين كثير من خواطر الشعراء الجاهليين فتبدو
صورهم الفنية متماثلة كل التماثل . فلدى طرفة بن عبد مقطوعات في معان جاء
بمثلها امرؤ القيس ، كما أن لديه أبياتاً هي ذاتها عند ضبيعة تتغير قوافيها
فحسب ، وإنّ في وحدة معاشهم وطبيعة أرضهم المتشابهة ، وانسباط آفاق
الرمال بين أعينهم ، وتظللهم تحت الخيام ، وعيشهم الراتب على المدر والحجر
وفي الوبر ، لما طبعهم جميعاً على غرار واحد ، فألف بين مثالات معانيهم
ونواظيرهم ، وضروب تصوراتهم ، مع اختلاف قليل في أساليبهم . على أن البصير
في أساليب المعلقة العشر ، واجد فيها شبيهاً في النسيج والمعنى ، مما يساعد على
الأخذ بهذه النظرية التي أقول فيها باحتمال التأليف للملحمة عربية جاهلية . . .
تمثل فروسية الجاهلية ، وتذكر حروبها وأيامها بالتسلسل والترتيب . . . فالعرب
في جاهليتهم وإسلامهم مواقف قلّ مثيلها عند الأمم المحاربة القديمة ، وفي تسمير
الجاهليين للحرب ليل نهار ، وغاراتهم الهاجمة التي ما حفلوا معها الموت ،
ما لا يقل عن مثيله عند غيرهم من الأمم التي عاصرتهم أو تقدّمتهم في الزمن . . .
ولن يكون للعرب ملحمة واحدة مقصورة على الحروب الجاهلية ، فإن تاريخهم
الحربيّ الذي نبه إليهم الأمم المجاورة وأخافها منهم وبسط سلطانهم على القلوب ،
قد بدأ منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان للعرب قصة حرب تبدأ من
غزوات الرسول ، ثم تنحدر إلى حروب الفتوح في ديار فارس ، وأرض الروم ،
وسائر الأقطار التي بلغ إليها العرب بسيوفهم حتى تبلغ شتات شملهم وتوزّع
سلطانهم في أواخر العصور . »

الحماسة في الجاهلية

(١) دواعي الحماسة الجاهلية :

للشعر الحماسي في الجاهلية دواع كثيرة ، منها أن البدوي وليد الصحراء يعيش في أكنافها ويواجه مخاطرها ، ويتقلب بين قسوة السماء وهيب الرضاء ، أمل عيشه في أنعام يضطرب في الأرض من أجلها ، ويتوقع الأمطار ليروي عطشها ، فيرتحل من مكان إلى مكان في مجاهل يرتعش كلؤها في سراب خداع ، حتى إذا زاحمه غريب على الماء والكأ هاجمه ؛ وإذا هنالك كر وفر ؛ وإذا هنالك جلاذ وصراع ، ودماء تسيل معها الأرواح ! وإذا هنالك طلب الثأر وإعداد العدة للانتقام ! وإذا هنالك تآلف وتحالف ، وتناد للحرب بين البطون والقبائل ؛ وإذا هنالك أخيراً صولات وجولات يتصادم فيها الأبطال ، وتتعانق فيها السيوف والنصال ، وتتعالى فيها أصوات الرجال وهمهمات الخيول والإبل ، وتنطلق السنة الشعراء مدوية ، معددة للمكارم والمفاخر .

ومن دواعي الشعر الحماسي أن البدوي شديد الحفاظ على الشرف والجار ، فإن تعدى عليهما أحد ، أوقد نار الحرب والقتال ، وأذكى بذلك القرائح ، ففاض الشعر في أسلوب ملحمي هدار .

وهكذا كان الداعي إلى الحماسة كل ما كان داعياً إلى الحرب ، وهكذا كانت كل حرب وكل غزاة ، وكل تعد وكل مناوأة ، سبباً من أسباب الفيض الملحمي الذي رافق تاريخ العرب في مختلف أطواره . وهكذا كانت أيام العرب في الجاهلية محور شعرهم ، ومدار أقوالهم . ولتلك الأيام تاريخ طويل ، وهي ترجع إلى أيام العرب والفرس ، وأيام القحطانية فيما بينهم ، وأيام القحطانيين

والعدنانين ، وأيام ربيعة فيما بينها ، وأيام ربيعة وتميم ، وأيام قيس فيما بينها ، وأيام قيس وكنانة ، وأيام قيس وتميم ، وأيام ضبة وغيرهم .

أما أيام العرب والفرس فأشهرها يوم ذى قار وهو لبكر على العجم ، وقد التقى جيش الأكاسرة بجيش العرب في بطحاء ذى قار ، وذو قار ماء لبكر قريب من الكوفة ؛ وكان جيش الفرس مؤلفاً من ثلاثة آلاف عربي ، ومن ألف من الأساورة على رأسهم الهامرز ، وألف آخر من الأساورة على رأسهم خنابزين ، ومن عدد كبير من الحلفاء والموالين ؛ وكان جيش العرب مؤلفاً من بني عجل في الميمنة وعليهم حنظلة بن ثعلبة ، ومن بني شيبان في الميسرة وعليهم بكر بن يزيد ابن مسهر ، ومن أفناء بكر في القلب وعليهم هاني بن مسعود . وقد دارت الدائرة على الفرس ، وقد اتبعتهم بكر يقتلونهم بقية يومهم وليلتهم ، حتى قضوا على من قضوا وشردوا من شردوا . ومن الأناشيد الخربية والأراجيز الحماسية التي تناشدها العرب في ذلك اليوم وحض بها بعضهم بعضاً على القتال ، ما قالته امرأة من عجل من بني شيبان :

إِنْ تَهْزِمُوا نُعَانِقُ وَنَفْرِشُ النَّمَارِقُ^(١)
أَوْ تَهْزَمُوا نَفَارِقُ فَرَاقَ غَيْرِ وَامِقُ

إلى غير ذلك من الشعر الذي ينطلق دفعاً دفعاً ، ويصور بلفظه وموسيقاه ، مواقف الشدة وحركات الهجوم ، ومضات الأسنة ، والتحام الأبطال بالأبطال ، وانفجارات الصدور والنفوس . وهذه المقاطع الشعرية أشبه شيء بمقاطع الإلياذة ، في وصف هجوم الطراودة والتحام القتال بينهم وبين الإغريق .

وأما أيام القحطانيين فيما بينهم ، فأشهرها يوم حليلة للمحارث الأعرج بن

(١) النمارق ج نمرة وهي الوسادة الصغيرة أو الطنفسة فوق الرجل .

جبله ، ملك العرب بالشام ، على المنذر بن المنذر بن ماء السماء ، ملك العرب بالحيرة .
وأما أيام القحطانيين والعدنانيين فن أشهرها يوم حجر لبني أسد على حجر
والد امرئ القيس الشاعر المشهور ، وأخبار ذلك اليوم معروفة متداولة في كتب
الأدب ، لما للملك الضليل من أهمية في أدب الجاهلية .

وأما أيام ربيعة فيما بينهم فأشهرها حرب البسوس التي دارت بين بكر وتغلب
ابني وائل ، وقد دامت أربعين سنة . وإن في حرب البسوس من المواقف ، وإن
فيها من الشعر ما هو أشبه شيء بمواقف إلياذة هوميروس وشعرها . وحرب
البسوس — على حد قول سليمان البستاني في مقدمة الإلياذة — « حرب تناقل
العرب أخبارها وتناشدوا شعرها . على ممر القرون حتى أيامنا هذه ، وصاغوها
بقوالب شتى لا يصلح قالب منها لصوغ الملاحم التامة كالإلياذة . ومع هذا فإن
جميع ما قيل فيها من الكلام المنظوم أقرب نسبة إلى الشعر القصصي منه إلى
الموسيقى ، فكل قصيدة منها قطعة من ملحمة . ولكن تلك القطع غير ملتزمة
لفقدان اللحمة بينها ، فهي كالحجارة المنحوتة قد أحكمت صنعتها ، وبقيت
ملقاة في أرضها غير مرصوفة بالبناء . ثم إذا نظرت إلى أشهر الرجال والنساء فيها ،
رأيتم جميعهم شعراء ، فكليب يقول الشعر ومثله زوجته جلييلة ، وأخوه مهلهل .
وكذلك مرة شاعر ، وابنه جساس شاعر ، وكل ذي شأن في القصة من غريب
وقريب شاعر ، كالحارث بن عباد وجحدر بن ضبيعة » .

ومن الأناشيد الحربية والقصائد الملحمية التي قيلت في حرب البسوس قول
مرة مخاطباً ابنه جساس :

فإن تك قد جنيت على حرباً تغص الشيخ بالماء القراح
جمعت بها يديك على كليب فلا وكل ولا رث السلاح^(١)

ولكنني إلى العَلَاتِ أَجْرِي إلى الموتِ المحيطِ . مع الصَّبَاحِ (١)
 وإنني حين تَشْتَجِرِ العَوَالِي أعيد الرُّمَحَ في إثرِ الجِرَاحِ (٢)
 شديد البأسِ ليس يذَى عِيَاءُ ولكنني أبوءُ إلى الفَلاحِ
 سألَبَسَ ثَوْبَهَا وَأَذْبُ عَنْهَا بِأَطْرَافِ العَوَالِي والصَّفَاحِ (٣)
 فما يَبْقَى لِعِزَّتِهِ ذَلِيلُ فَيَمْنَعُهُ من القَدَرِ المَتَاحِ
 فإني قد طرِبْتُ وَهَاجَ شَوْقِي طَرَادُ الخَيْلِ عَارِضَةَ الرِّمَاحِ
 وأَجْمَلَ من حَيَاةِ الدُّلِّ مَوْتُ وبعضُ العَارِ لَا يَمْحُوهُ مَاحِ

ومن ذلك أن الحارث بن عباد أرسل إلى المهلهل وقال : إن كنت قتلت بجيراً بكليب ، وانقطعت الحرب بينكم وبين إخوانكم . فقد طابت نفسي بذلك . فأرسل إليه المهلهل : إنما قتلته بشسع نعل كليب . فغضب الحارث ودعا بفروسه — وكانت تسمى النعامة — فجز ناصيتها وهلب ذنبها (٤) ، ثم قال قصيدة منها :

كلُّ شَيْءٍ مَصْمِيرُهُ لِلزُّوَالِ غيرَ رَبِّي وصالحِ الأَعْمَالِ
 وترى النَّاسَ يَنْظُرُونَ جَمِيعاً ليسَ فيهِمَ لِدَاكَ بعضُ احتِيَالِ
 قُلْ لِمُ الْأَغْرُ تَبْكِي بُجَيْراً ما أتى المَاءُ من رُؤُوسِ الجِبَالِ
 لَهْفَ نَفْسِي عَلَى بُجَيْرٍ إِذَا مَا جَالَتِ الخَيْلُ يَوْمَ حَرْبِ عُضَالِ
 وتساقى الكُمَاةُ سُمّاً نَقِيعاً وبدا البَيْضُ من قِبابِ الحِجَالِ

(١) بنو العلات : بنو رجل واحد من أمهات شق .

(٢) تشتجر : تتداخل .

(٣) الصفاح : السيوف العراض .

(٤) هلب ذنبها : تنفه .

وَسَمِعْتُ كُلَّ حُرَّةٍ - الْوَجْهَ - تَدْعُو
 يَا بُجَيْرَ الْخَيْرَاتِ لَا صَدْحَ حَتَّى
 وَتَقَرَّ الْعَيُونَ بَعْدَ بُكَاهَا
 أَصْبَحَتْ وَائِلٌ تَعِجُّ مِنَ الْحَرِّ
 لَا بُجَيْرٌ أَغْنَى قَتِيلًا وَلَا رَهْ
 لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا - عَلِمَ اللَّهُ -
 قَدْ تَجَنَّبْتُ وَائِلًا كَى يُفْهِقُوا
 وَأَشَابُوا ذَوَابِي بِبُجَيْرٍ
 قَتَلُوهُ بِشَّمْسٍ نَعْلٍ كَلَيْبٍ
 يَا بَنِي تَغْلِبٍ خَذُوا الْحَذَرَ إِنَّا
 يَا بَنِي تَغْلِبٍ قَتَلْتُمْ قَتِيلًا
 قَرُّبًا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مِنْى
 قَرُّبًا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مِنْى
 قَرُّبًا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مِنْى
 قَرُّبًا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مِنْى
 قَرُّبًا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مِنْى
 قَرُّبًا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مِنْى
 قَرُّبًا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مِنْى
 قَرُّبًا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مِنْى

يَا لَبَكْرٍ ! غَرَاءَ كَالْتَّمْشَالِ
 نَمْلًا الْبَيْدَ مِنْ رُؤُوسِ الرِّجَالِ
 حِينَ تَسْقَى الدِّمَاءَ صَدُورَ الْعَوَالِ
 بِعَجِيجِ الْجِمَالِ بِالْأَثْقَالِ
 ط. كَلَيْبٍ تَزَاجِرُوا عَنْ ضَلَالِ
 وَإِنِّي بِحَرْهَا الْيَوْمَ صَالِ
 فَآتَتْ تَغْلِبٌ عَلَى اعْتَزَالِ
 قَتَلُوهُ ظُلْمًا بِغَيْرِ قِتَالِ
 إِنَّ قَتَلَ الْكَرِيمِ بِالشَّمْسِ غَالِ
 قَدْ شَرِبْنَا بِكَاسِ مَوْتٍ زُلَالِ
 مَا سَمِعْنَا بِمِثْلِهِ فِي الْخَوَالِ
 لَقِصَّتْ حَرْبُ وَائِلٍ عَنْ حِيَالِ (١)
 لَيْسَ قَوْلِي يُرَادُّ لَكِنْ فَعَالِي
 جَدُّ نَوْحِ النِّسَاءِ بِالْإِعْوَالِ
 شَابَ رَأْسِي وَأُنْكَرْتُنِي الْعَوَالِ
 لِلْسُرَى وَالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ
 طَالَ لَيْلِي عَلَى اللَّيَالِي الطَّوَالِ
 لَاعْتَنَاقِ الْأَبْطَالِ بِالْأَبْطَالِ

(١) عن حِيَال : أَيْ أَنْ حَرْبُ وَائِلٍ هَاجَتْ بَعْدَ سَكُونِ .

قرباً مربطاً النعامة منى	وأعدلاً عن مقالة الجهال
قرباً مربطاً النعامة منى	ليس قلبي عن القتال بسال
قرباً مربطاً النعامة منى	لما هب ربح ذيل الشمال
قرباً مربطاً النعامة منى	لبجير مفكك الأغلال
قرباً مربطاً النعامة منى	لكريم متوج بالجمال
قرباً مربطاً النعامة منى	لا نبيع الرجال ببيع النعال
قرباً مربطاً النعامة منى	لبجير فداه عمى وخالي
قرباً لها لحي تغلب شوساً	لاعتناق الكمأة يوم القتال (١)
قرباً لها وقرباً لأمتي دز	عاً دلاًصاً ترد حد النبال (٢)
قرباً لها بمرهفات حداد	لقيراع الأبطال يوم النزال
سائلوا كندة الكرام وبكراً	وأسألوا مذحجاً وحى هلال
إذ أدونا بعسكر ذي زهاء	مكفهر الأذى شديد المصال (٣)
فقريناه حين رام قرانا	كل ماضى الذباب غضب الصقال (٤)

وهكذا ترى أن مثل هذا الشعر ، وإن كان بادی النحل في بعض أجزائه ،
هو شعر الحرب بكل ما في الكلمة من معنى ، هو شعر الثورة الدموية ، والغضبة
البدوية الكريمة ، هو الانتصار للشرف والإباء ، وهو الحلم في فورة البأس ،

(١) الشوس ج أشوس وهو الجري .

(٢) الدرع الدلاص : اللينة الملساء .

(٣) ذي زهاء : ذي عدد كبير .

(٤) ذباب السيف : حده .

والبأس في انتفاضة الحلم . وما أشبه هذا المشهد بمشهد « دون دياغ » في رواية السيد لكورنيل المسرحى الفرنسى الشهير ! وما أروع هذا البحر الشعرى في مثل هذا الموقف ! وما أروع الألفاظ المتدافعة ، المكرورة في تدافعها الحربى ، الموقعة على نبضات القلب ، والتي تحمل في طياتها هدير الهاوية ، وجلبة الموت العميقة ! . . .

وأما أيام ربيعة وتميم فمن أشهرها يوم ذى طلوح لبنى يربوع من تميم على بكر من ربيعة .

وأشهر أيام قيس فيما بينها يوم « داحس والغبراء » وقد قيل فيها شعر كثير وهى حرب السباق بين عبس وذبيان ، وكانت الحرب بينهما سجالات وانتهت بصلح .

وقد اشتملت أيام المريقب ، وذى حساء ، واليعمرية ، والهباءة ، وفروق ، وقطن . ولهذه الحرب روايات كثيرة في كتب الأدب منها أن الورد العيسى زار يوماً حذيفة بن بدر الديباني ، فعرض عليه حذيفة خيله ، فقال : ما أرى فيها جواداً مبراً . فقال له حذيفة : فعند من الجواد المبر ؟ فقال : عند قيس ابن زهير . فقال له : هل لك أن تراهنى عليه ؟ قال : نعم ! قد فعلت . فراهنه على ذكر من خيله وأثنى . ثم إن ورداً العيسى أتى قيس بن زهير وقال : إني قد راهنتُ على فرسين من خيلك ذكر وأثنى ، وأوجبت الرهان ، فقال : ما أبالي من راهنت غير حذيفة . فقال : ما راهنت غيره . فقال قيس ! إنك — ما علمت — لأنك .

ثم ركب قيس حتى أتى حذيفة فوقف عليه ، فقال له حذيفة : ما غدا بك ؟ فقال : غدوت لأوضحك الرهان . فقال حذيفة : بل غدوت لتغلقة (١) . فقال قيس : ما أردت ذلك . فأبى حذيفة إلا الرهان . فقال قيس : أحيرك

(١) أغلق الرهان : أوجبه .

ثلاث خلال ، فإن بدأت واخترت قبلي ، فلي خلتان ولك الأولى . وإن بدأت
فاخترت قبلك فلك خلتان ولي الأولى . قال حذيفة : فابدأ . قال قيس : الغاية
من مئة غلوة^(١) . قال حذيفة : فالمضمار^(٢) أربعون لياة ، والمجرى من ذات
الإصا^(٣)د .

ففعلا ووضعوا السبق على يدي أحد بني ثعلبة بن مسعد . ثم ضمروا
الخيل ، فلما فرغوا استقبل الذي ذرع الغاية بينهما من ذات الإصا^(٣)د . فأنتهى
الذرع إلى مكان ليس له اسم . فقادوا الخيل إلى الغاية وجعلوا السابق الذي يرد
ذات الإصا^(٣)د ، وأجرى قيس داحساً والغبراء ، وحذيفة الخطار والحنفاء . وملأوا
البركة ماء ، وجعلوا السابق أول الخيل يكرع فيها . وأقام حذيفة رجلاً من بني
أسد — وبنو أسد أحلاف ذبيان — في الطريق ، وأمره أن يلتقي داحساً في
الطريق ، فإن جاء سابقاً رد وجهه عن الغاية . فلما أرسلت الخيل سبقها داحس
سبقاً بيناً والناس ينظرون ، فلما هبط داحس في الوادي عارضه الأسدى فلطم
وجهه فألقاه في الماء ، فكاد يغرق هو وراكبه ولم يخرج إلا وقد فاتته الخيل .
وأما راكب الغبراء فإنه خالف طريق داحس لما رآه قد أبطأ . ثم عاد إلى الطريق ،
 واجتمع مع فرسى حذيفة ، ثم سقطت الحنفاء ، وبقى الخطار والغبراء . ثم إن
الغبراء جاءت سابقة ، وتبعها الخطار ، ثم الحنفاء ، ثم جاء داحس بعد ذلك
والغلام يسير به على رسله ، وأخبر الغلام قيساً بما صنع بفرسه . فطالب قيس
بالسبق — وكان عشرين من الإبل — فأبت بنو فزارة أن يعطوهم شيئاً . فقالت

(١) الغلوة : الرمية بالنشابة .

(٢) المضمار : وقت للأيام التي تضر فيها الخيل للسباق أو للركض أو للعدو ؛ وتضميرها
أن تشد عليها سروجها ، وتجلل بالأجلة حتى تعرق تحتها فيذهب رهلها ، ويشتد لحمها ، ويحمل
عليها غلمان خفاف يحرونها ، لا يعنفون بها ، فإذا فعل بها ذلك أمن عليها البهر الشديد عند حضرها ،
ولم يقطعها الشد .

(٣) ذات الأصا^(٣)د : نقيرة في حجر يجتمع فيها الماء ، وهي في ديار بني عبس .

بنو عيس : أعطونا بعض سبقنا . فأبوا . فقالوا : أعطونا جزوراً ننحرها ونطعمها أهل الماء ، فإننا نكره القالة في العرب . فقال رجل من قزارة : لمائة جزور وجزور واحدة سواء ، والله ما كنا لنقر لكم بالسبق علينا ، ولم نُسبق . فكان ذلك سبب دماء فيما بين القبيلتين ، ثم سبب حرب ضروس أبلى فيها عنزة العيسى بلاءً حسناً ، وقد انتهت بصلح قام على يدي الحارث بن عوف وهرم ابن سنان . وقد مدحهما زهير بن أبي سلمى في معلقته التي أتى فيها على ذكر تلك الحرب وويلاتها^(١) .

وأما أيام قيس وكنانة فمن أشهرها يوم الكديد لبنى سليم (بطن من فيس عيلان) على كنانة . والكديد موضع على اثنين وأربعين ميلاً من مكة . ومن أبطال ذلك اليوم الشاعر المشهور دريد بن الصمة . وأما أيام قيس وتميم فمن أشهرها يوم رحرحان لعامر على تميم ، ورحرحان اسم جبل قريب من عكاظ ، ثم يوم شعب جبلة بنجد لعامر على ذبيان وتميم . وقد قال أبو عبيدة معمر ابن المثنى : « يوم جبلة أعظم أيام العرب » وذلك لما اتخذ في هذا اليوم من الحنكة والحكمة ، وسديد الرأي والحيلة وحسن التنفيذ . وقد وصف المعقر البارقى — وكان قد شهد الواقعة — ذلك اليوم المشهود ، وما أتى به الأبطال من جليل الأعمال ، في أبيات منها :

ضربنا جميل البَيْضِ في غمر لجةٍ	فلم ينجُ في الناجين منهم مُفَاخِرُ
هوى زهيم تحت العجاج لعامرٍ	كما أنقَضَ بازٍ أقتَمُ الريش كاسِرُ
يُفَرِّجُ عَنَّا كُلَّ ثَغْرِ زَخَافِهِ	مُشِيحٌ كَسِرْحَانِ القَصِيمة ضامِرُ
وَكُلَّ طَمُوحٍ في العِنانِ كأنَّهَا	إذا اغتَمَسَتْ في الماءِ فَتَخَافُ طَائِرُ

تلك أيام العرب ، وقد كانت من أشد دواعي الشعر الحماسي ، بل كانت ينبوع الملحمة الجاهلية الكبرى ، ومستوحى الفخر العربي في قديم عصوره . وقد قامت فيها النساء إلى جنب الرجال يشاركنهم أعمال بطولتهم ، ويقفن في مؤخرة الجيوش يصفقن بالدفوف ، وينشدن الأهازيج ، وينظمن أحياناً الشعر في وصف المعارك ، واشتهر منهن كثيرات من مثل « الهيفاء القضاعية » القائلة :

الخيلُ تعلمُ يومَ الرُّوعِ إنْ هُزمت أنْ ابنَ عمرٍ ولدى الهيجاءِ يَحْمِيهَا

(ب) موضوعات الحماسة الجاهلية :

دار الشعر الحماسي في الجاهلية حول وصف المعارك ، ووصف أعمال البطولة ، ثم وصف الخيول والإبل ، وأدوات الحرب وما إلى ذلك . وقد برع الجاهليون في وصف المعارك وتصويرها حية نابضة مملوءة بالهول ، كما برعوا في وصف أدواتها . فالليادين فسيحة الأرجاء ، وأحياء العرب في لغط وضوضاء ، يقوم فيها المنادون ينادون إلى الحرب ، ويدعون إلى القتال ، لأن الشرف قد ديس ، أو لأن الدم المهرق يطلب الثأر ، أو لأن المراعى قد اغتصبت ، أو لأن المواشى قد سيقبت ، أو لأن فرس فلان قد سبقت فرس بعض أبناء القبيلة ، أو لأسباب أخرى ألحقت للقبيلة عاراً ، ونشرت في الحى ذلاً وصغاراً . يا للعار ! يا لبني فلان ! الحرب ! الحرب ! ... وما هي ذى القبيلة كلها في غضب وثورة ، فالنساء في زغردة ، والأطفال في دمدمة ، والرجال في همهمة ، والصدور في انفجار ، والخيول في صهيل ، تضرب الأرض بالخوافر ، وترفع الرؤوس في عنقوان ؛ والإبل في هدير وعجيج ، والهواذج قباب تلو قباب ، والحسان فوق الهواذج بدور ، وأناشيد فخروعة قومية ، والفرسان على الصهوات نسور وعقبان ، والهندوانية بتارة تحمل في شفاها الموت والدمار ، والعوالى غابات ممتدة فوق الرؤوس ، تتلوى في شغف إلى امتصاص الأرواح ، والآمال فوق

الرياح أعلام خفاقة . القبيلة جماهير جماهير . والأحلاف جماهير جماهير ،
 والمقاتلة جماهير جماهير ، والهول والموت جماهير جماهير ، يبدو رئيس القوم على
 فرس أخف من النسيم ، فيذهب ويحيى ، ويتفقد ويستعرض ، ثم ينطلق إلى
 ساحة الوغى ، وإذا الفرسان وراءه كتائب كتائب ، وإذا صدى الخوافر ،
 وصليل الأسلحة ، وإذا صفعات الأخفاف زمزمت تشق الغبار وتملاً الأجواء ،
 يلتقى الجيشان فيتصاولان ويتجاولان في كر وفر ، وإذا الرياح في الصدور
 والنحور ، والسيوف في الأعناق والرؤوس ، والدماء تسيل على الرمال صباغاً
 قرمزيّاً ، وتتناثر على صدور الخيول فتحمم ، وعلى وجوه الأبطال فتزيدهم
 شراسة وهياجاً ، وإذا السماء اربداد وقساطل ، تشقها الارتجازات والزغردات
 شقّاً . ثم ينجلي الموقف عن عدو مهزوم ، وعن شرف مصون ، فيعود رجال
 الحرب زرافات زرافات ، وإذا القبيلة وأحلافها في عيد ، ثم في تأهب لعراك
 جديد .

وهكذا كان الجاهليون يصفون الأبطال بالشدة والشجاعة والبأس ،
 ويصفونهم بقوة الساعد ، وقوة الشكيمة ، والعناد في الصدام ، ورجاحة العقل في
 الكر والفر ، والحيلة في مواقف الشدة ، والعفة في تقاسم الغنائم ، والبديهة في
 المآزق الضيقة ، والكرم في كل حال . وكانوا يصفون الخيول بالسرعة والخفة
 وشدة الانقباض ، ويشبهونها بالعقبان والظباء والنعام والرياح ، ويستحسنون فيها
 الضمور ، والملاسة ، ومتانة الساقين ، وقوة الجنبين ، وطول الذنب ، واستقامة
 العسيب وما إلى ذلك مما يرجع إلى النشاط والسرعة . وكانوا يصفون عدة الحرب
 بما كان يصفها به غيرهم من الشعوب القديمة ، فيذكرون للسيف بلاءه في حز
 الرقاب ، وقصم الظهر ، وقطع الدروع ، وذكروا للرمح التماع سنانه ، وأنه أزرق
 كأنياب الغول ، يخترق الصدور ويدي النحور .

(ح) مميزات الحماسة الجاهلية :

قال الدكتور زكى المحاسنى : « طول مشاهدة العرب للمعارك أكسب شعراءهم دقة وصفها وحسن تصويرها .، وهل كانت المعارك فى حياة العرب إلا مناط عزهم ومدار فخرهم ، يردونها ولا وجه أمامهم سوى الموت . لقد رخص كل شىء لديهم من حطام الدنيا ، ولم يكن من حطامها بين أيديهم سوى قليل . وغلا لديهم كل ما رافق المروءة والشهامة ، فكانت شجاعتهم أدعى لهم إلى الحرب . على أنهم لم يطرحوا سداد الرأى ، وإنما كانوا فى حروبهم يقلبون أوجهه ليصلوا إلى أيها الأسد ، ولم يكن وصف شعرائهم للمعارك وصفاً مطولاً يأخذ بالكلام من أوائله حتى ينتهى إلى أواخره كما تدعو الحوادث ، فليس لديهم قصائد تمسك بأوائلهما حتى تبلغ نهايتها ، فتريك صورة معركة منذ بداءة الوقعة إلى ختامها ، وإنما هى فترات شعر فى لمحات وصف مقتضبة متجزئة ، يتبين فيها الروح العربى البيانى الذى انطوى ، منذ كان ، على الاختصار فى سرد الصور ، أو الزهد فى التقصى ، ونحن إذا وجدنا منها مطولات فى موضوع الحرب ووصف المعارك ، فإننا لا نجد فيها وحدة متناسقة فى الموصوفات المتشابهة . ولقد يتاح لنا بعد عصر الجاهلية أن نلم بقصائد كاملة ، يصف شعرائها المعارك التى شهدها أوقيلت لهم ، ولكنها قليلة ، وسبب ذلك حب الانطلاق من قيد المعانى والانفلات من استقصائها ، لضيق القافية الراتبة واتساع المعانى المتوالدة ، إذ كان يؤثر الشاعر العربى الخروج من موضوع إلى آخر ، ومن صورة لم يكمل وصفها إلى غيرها من الصور . . . ولقد أحاط شعراء الجاهلية بأوصاف السلاح وعدة الحرب بما لم تحط به أمة من أمم الحرب . فحذقوا الكلام عليها ، وأجالوا البيان فى وصف آلاتها ، وأكثروا من العناية بتصويرها وتصويرها ، حتى ألموا بدقائقها وأشكالها . وكان هذا الشعر الواصف للعدة والسلاح شغل شعراء العرب الشاغل ، ودأبهم فى

استنباط التشابه ، وتوليد أفاينها واستقصاء روائعها ، حتى صار ما قالوه في أوصاف السلاح وعدة القتال تراثاً أدبياً في شعرنا العربي نكاثر فيه آداب الشعوب
 وإننا إذا تتبعنا ألفاظ لغة العرب وتقصينا جملها وتراكيبها ، واستقرأنا تعابيرها في المجاز والاستعارة ، وسائر فنون البلاغة — كما عرفت على رسلها في الجاهلية قبل أن تستولى عليها الكلفة في تتابع العصور الإسلامية — وجدنا أن لغة العرب لغة حرب وضرب ، وطعان ونزال ، في أروع بيانها وأبرع تشابيهها^(١) .

(د) نماذج من شعراء الحماسة الجاهلية :

إن من استقرى الشعر الجاهلي وجد أن للحماسة فيه محلاً واسعاً جداً ، وشعر أن الحماسة ملء الأفواه والأسماع ، وذلك أن الشعراء لذلك العهد كانوا ينهضون ، كسائر الناس ، بعبء القتال ، وقد عدّوه جزءاً من حياتهم ، وبات من العار لديهم أن يموت المرء حتف أنفه ، كما بات من غداشهم اليومي أن يتحدثوا عن القتال ، وأن يصفوا المعارك ، وأن يتفاخروا بالأيام . وإنه ليطول بنا المجال لو أردنا ذكر أسماء شعراء الحماسة ، فكيف بنا لو أردنا الكلام على شعرهم ، ولذلك سنقتصر على بعضهم ، وفي ذكر القليل غنى عن التفصيل والتطويل .

الفند الزماني :

كان أحد فرسان ربيعة المشهورين ، وقد شهد حرب بكر وتغلب وله من العمر نحو مائة سنة . وإليك أبياتاً من قصيدة قالها في حرب البسوس . وذلك أن بكر بن وائل بعثوا إلى بني حنيفة في حرب البسوس يستنصرونهم ، فأمدوهم به وبقومه بني زمان وعدادهم في بني حنيفة ، فقال :

(١) شعر الحرب في أدب العرب ، ص ٢٧ ، ٣٢ .

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي ذَهْلٍ وَقُلْنَا الْقَوْمُ إِخْوَانُ
 عَسَى الْأَيَّامُ أَنْ يَرْجِعَ نَ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا
 فَلَمَّا صرَّحَ الشَّرُّ فَأَمْسَى وَهُوَ عَرِيَانُ
 وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُدِّ وَإِنْ دَنَاهُمْ كَمَا دَانُوا
 مَشِينَا مِشْيَةَ اللَّيْلِ مِثْ غَدَا ، وَاللَيْثُ غَضِبَانُ
 بِضَرْبٍ فِيهِ تَوَهِينُ وَتَخَضِيعُ وَإِقْرَانُ
 وَطَعْنٍ كَقَسَمِ الزُّقِّ غَدَا وَالزُّقُّ مَلَانُ
 وَبَعْضُ الْحِلْمِ عِنْدَ الْجَهْلِ لِلذَّلَّةِ إِذْعَانُ
 وَفِي الشَّرِّ نَجَاةٌ مِنْ لَا يُنْحِيكَ إِحْسَانُ

هذا شيخ جاهلي ، قد تقلبت عليه الأيام بحلواها ومرها ، ودارت عليه دوائر الزمن ، وجال في الحروب جولات وجولات ، وكان السيف لساعده نصيراً ، وكان الرمح لعزمه ظهيراً ؛ وقد دعى للحرب وهو في شيخوخته فلبى الدعوة لأن الشر قد صرح ، ومشى في قومه مشية الليث الجائع الغضبان ، ونظم في ذلك شعراً حربيّاً يحمل في وزنه وقافيته صدى الهجوم الصاعق ، ويحمل في ألفاظه حكمة الشيخوخة ، وصرامة البطولة ، وعنفوان الجاهلية .

الحصين المري :

والحصين بن الحمام المريّ شاعر جاهلي وفارس مذكور يعد من أوفياء العرب . وما يروي من أخباره أنه كان ناس من بني قضاعة يقال لهم بنو سلامان ابن سعد حلفاء لبني صرمة بن مرة ونزولاً فيهم ، وكان بنو حميس بن عامر حلفاء لبني سهم بن مرة ، وكان في بني صرمة يهودى من أهل تيماء يقال له جهينة ، وكان في بني سهم يهودى من أهل وادي القرى يتاجر في الخمر ، وكان بنو جوشن

أهل بيت من عبد الله بن غطفان جيراناً لبني صرمة ، وكان يُتشاءم بهم ،
ففقّدوا منهم رجلاً ، يُقال له حصّين كان يقطع الطريق وحده ، فكانت
أخته وإخوته يسألون الناس عنه وينشدونه في كل مجلس وموسم ! فجلس
ذات يوم أخ لذلك المفقود في بيت ذلك اليهودي المجاور لبني سهم يبتاع خمرًا ،
إذ مرت أخت المفقود تسأل عن أخيها ، فقال لليهودي : نشدتك الله ودينك
هل تعلم لأخي علماً ؟ فقال : لا وديني لا أعلم . فلما مضى تمثل ذلك اليهودي :
لعمرك ما ضلّت ضلال ابن جوشن حصاة بليل أقيت وسط جندل

وأراد أن الحصاة يمكن أن ترجع وأن هذا لا يرجع أبداً . فلما سمع أخوه ذلك
تركه حتى إذا أمسى الليل قتله . فأتى الحصين وقيل له إن جارك اليهودي قتله
أبو جوشن جار بني صرمة . فقال : اقتلوا اليهودي الذي في جوار بني صرمة
فأتوه فقتلوه . فوقع بذلك الشر بينهم وقاتلهم الحصين وهزمهم ، وكف يده
بعد ما أكثر فيهم القتل . وأبى بنو سلامان أن يكفوا عن القوم حتى أثخنوا فيهم
وأجلبت بنو ذبيان وبنو محارب بن خصفة على بني سهم مع بني صرمة . فأقاموا
على الحرب فظفر بهم الحصين وهزمهم وقتل منهم ، وقال هذه الأبيات :

فَقُلْتُ لَهُمْ يَا آلَ ذَبْيَانَ مَا لَكُمْ	تَفَاقَدْتُمْ ، لَا تُقَدِّمُونَ مُقَدِّمًا (١)
مَوَالِيَكُمْ مَوَالِي الْوِلَادَةِ مِنْهُمْ	وَمَوَالِي الْيَمِينِ حَابِسٌ قَدْ تُقَسِّمًا (٢)
وَقُلْتُ تَبَيَّنْ هَلْ تَرَى بَيْنَ خَارِجٍ	وَنَهْيِ الْأَكْفِ صَارِخًا غَيْرَ أَعْجَمًا (٣)

(١) تفاقدم : جملة اعتراضية ، وهي دعاء عليهم بأن يفقد بعضهم بعضاً . مقدماً : تقدماً أي
إقداماً .

(٢) المولى يطلق على معان كثيرة ، وقسم الشاعر في هذا البيت الموالى إلى بنى عم وهم الذين
نسبهم مولى الولادة ، وإلى حليف وهو من انضم إليك فعز بعزك وهو الذي سماه مولى الإيمن لأنه يقسم
له عند الانضمام . . يقول : تداركوا الذين يتسبون بولاء النسب وولاء الحلف فكل منهم ذو حبس
على الشر متقسم الحال مغار عليه .

(٣) خارج : ماء لبني عبس . نهى الأكف : موضع . الصارخ : المستغيث . الأعجم :
الذي لا يفصح .

مِنْ الصُّبْحِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ لَا تَرَى
 عَلَيْهِنَّ فِتْيَانٌ كَسَاهُمُ مُحَرَّقٌ
 صَفَائِحَ بُصْرَى أَخْلَصَتْهَا قِيُونُهَا
 وَلَمَّا رَأَيْنَا الصَّبْرَ قَدْ حِيلَ دُونَهُ
 صَبْرُنَا وَكَانَ الصَّبْرُ مِنَّا سَجِيَّةً
 تَفَلَّقُ هَاماً مِنْ رِجَالٍ أَعَزَّةٍ
 وَلَمَّا رَأَيْتُ الْوَدَّ لَيْسَ بِنَافِعِي
 فَلَسْتُ بِمُبْتَاعِ الْحَيَاةِ بِذِلَّةٍ
 مِنَ الْخَيْلِ إِلَّا خَارِجِيًّا مَسْمُومًا (١)
 وَكَانَ إِذَا يَكْسُو أَجَادَ وَأَكْرَمًا (٢)
 وَمَطَرِدًا مِنْ نَسِجِ دَاوُدَ مُبْنِيًّا (٣)
 وَإِنْ كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبَ مُظْلِمًا (٤)
 بِأَسْيَافِنَا يَقْطَعْنَ كَفًّا وَمَعْصَمًا
 عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعْقُ وَأَظْلَمًا (٥)
 عَمَدْتُ إِلَى الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ أَحْزَمًا
 وَلَا مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ سُلَمًا

الحصين بن الحمام المرقى يحارب أيضاً لأن داعى الشرف دعاه إلى ذلك ،
 وعنده الميثة الحسنة على ما يتعقبها من الأحداث الجميلة آثر من العيشة الدميمة
 على ما يخالطها من الذل . إنه يحارب بحزم وجلد ، وهو يصف حربه بإيجاز
 شديد ، وإذا الحرب عنده خيل مسومة كثيرة العدد ، عليها فتيان بدروع
 دقيقة الصنعة وسيوف بتارة ، وتفليق لهايات الأبطال ، وإذا شعره حكاية حال ،

(١) الخارجي من الخيل هو الذي برز وأبواه ليسا كذلك . المسوم : المعلم بعلامة يعرف بها
 يشير بهذا البيت إلى كثرة الخيل والرجال .

(٢) محرق : أحد ملوك لحم حرق قوماً فسمى محرقاً .

(٣) الصفائح : السيوف ، وقد نصب على أنها مفعول « كسا » في البيت السابق . بصرى :
 موضع بالشام تباع فيه السيوف . القيون : الحدادون . المطرد : الدرع المتتابعة النسيج . يقول :
 كساهم محرق سيوف بصرى التي أجيد صنعها وكساهم أيضاً دروعاً متتابعة النسيج خفيات الحلقات
 لدقة صنعها .

(٤) وإن كان يوماً : أى وإن كان ذلك اليوم يوماً . يقال : أراه الكواكب نهارة ،
 لاحتجاب الشمس فيه من الغبار أو لشدة الأمر وعظم الخطب .

(٥) يقول : نشق رؤوس رجال أعزة علينا ولكن الذى حملنا على قتالهم إنما هو ظلمهم وعقوقهم .

وإبداء لآرائه في الحياة والموت ! وإذا هو في كل ذلك شاعر بدويّ مستميت
في سبيل الشرف والإباء .

المهلهل :

هو عدى بن ربيعة التغلبي ، خال امرئ القيس الشاعر المشهور ، وهو بطل
من أبطال حرب البسوس ، وقد أسر في نهاية الأمر ومات في أسره . وأكثر شعره
في رثاء أخيه كليب وفي تواعد الأعداء وما إلى ذلك . وأدبه هو أدب العاطفة
التي تغالي في وصف الأخ ووصف الهول ، وتعتمد التكرار والتهديد الطفولي
وطلب المستحيل في غير منطق ولا تحليل ، وذلك كله تارة في جو ملحمة من
الشعر الحربي ، الذي تتقاذف ألفاظه ، ويتعالى دوى حوافر أفراسه ، وطوراً
في أجواء من الميوعة هي موسيقى خمر ونساء . وأدب المهلهل هو أدب حرب
وحماسة ، وأدب عاطفة وتكرار ، وأدب سهل الأسلوب وسهل التعبير . والمهلهل
هو بطل في الحرب وفي اللهو ، وقد نسجت حواليه أسطورة الزير ، فلا عجب
أن دس في شعره أبيات كثيرة ليست له ، قد تكون سبباً من أسباب الضعف
والهلهلة والإسفاف في أدبه .

الحماسة في المعلقة :

إن من يقرأ المعلقة يلمح أن فيها ناحية ملحمة كما في سائر الشعر
الجاهلي ، وإننا سنجتزئ بذكر ثلاث من تلك المعلقة ، وفيها شاهد كاف
على ما نقول وما نحن في صددده : معلقة عمرو بن كلثوم ، والحارث بن
حلزة ، وعنزة بن شداد .

عمرو بن كلثوم هو أبو الأسود بن مالك التغلبي ، وأمه ليلى بنت المهلهل .
نشأ عزيز الجانب أنوفاً معجباً بنفسه أشد الإعجاب ، وساد قومه وهو ابن

خمس عشرة سنة ، وقاد الجيوش مظفراً . ولما قامت المشاحة بين بكر وتغلب واحتكموا إلى عمرو بن هند ، وقف عمرو بن كلثوم مدافعاً عن قومه ، وما إن فرغ من إنشاد قصيدته حتى ظهر له أن هوى الملك مع بكر ، فانصرف وفي نفسه ما فيها . ثم خطر في نفس بن هند أن يكسر من أنفة تغلب بإذلال سيدها عمرو بن كلثوم ، فدعاه هو وأمه ليلي ، وأغرى هنداً أمه أن تستخدمها في قضاء أمر ، فصاحت ليلي : « وإذلاه ! يا لتغلب ! » فسمعها عمرو بن كلثوم ، فثار به الغضب وقتل ابن هند في مجلسه ، ثم رحل تَوّاً إلى بلاده بالجزيرة الفراتية ، وأضاف إلى معلقته قسماً بين فيه سخطة على عمرو بن هند .

وإنا لنشعر ، ونحن نقرأ معلقة ابن كلثوم ، أننا أمام مشهد يشبه بهشهد أنخيل يخاطب هكطور في لهجة الناغم ، في لهجة الشجاع الباسل الذي يتدفق تدفق السيل الجارف ، في لهجة من تملأ من المجد وقام في قومه مقام السيد ، وحمل في نفسه ماضياً زاخراً بالعزة ، حافلاً بالقوة ، وحاضراً تتعانق فيه السيوف والرماح وتجري فيه الدماء سيولاً ، ومستقبلاً يقوم على جماجم الأعداء صروحاً تظلل الأبناء إلى أبد الدهر .

وإننا نلمس في هذه المعلقة أن أدب ابن كلثوم هو أدب الثورة والجماح ، أدب الانفعال الشديد الذي لا يحد منه العقل ، فقصيدته اندفاع على غير هدى ، وعلى غير استقامة في التفكير والتنسيق ، وأفكاره متدافعة ، متقاذفة ، مكورة ، تسبح في عالم من الخيال الجامح الذي يغلو ويفرق في الغلو .

أما الحارث بن حلزة اليشكري البكري فهو الذي وقف في وجه عمرو بن كلثوم يوم الاحتكام إلى عمرو بن هند ، ودافع عن قومه بقصيدته المعدودة من المعلقات ، والتي وصف فيها الحرب ومزج في الوصف صهيل الخيل بصلصلة الصوارم ، بعجيج الأبطال ، بأصوات الماشية ، بثورة الطبيعة كلها . وشعر ابن حلزة خطابي ملحمي ، يري إلى الإقناع ، ويعتمد سرد القصص البطولي ، وذلك

في جو من الموسيقى الشديدة الوقع ، التي تدوى في هدوء وانطلاق ، وتماشى العقل والشعور والخيال ، فتزيدها قوة وعمق تأثير .

وعنتر بن شداد : هو عنتر بن شداد العبسي أحد فرسان العرب وأغربتها وشعرائها المشهورين .

ولما كانت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان كان عنتر قائد الكتائب وخائض الغمرات ، وكان البطل الذي تناولت الأسطورة أعماله فجعلت منه المثال الأعلى في الفروسية والبطولة . وقد حفز عنتر على أعمال البطولة ، فوق ما حفزه ، رغبته في استرضاء عبلة ، ومحوسود الجلود بيض الفحال . وشاخ عنتر بن شداد وهو أبداً رجل الخيل والسيوف والرماح ، وقد مات قتلاً نحو سنة ٦١٥ للميلاد .

[ورد في كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ما يلي : « كان عنتر من أشد أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يده . وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة » ، حتى سابه رجل من بني عبس ، فذكر سواده وسواد أمه وإخوته ، وعيره بذلك وبأنه لا يقول الشعر . فقال له عنتر : والله إن الناس ليتراقدون بالطعمة فما حضرت مرفد الناس أنت ولا أبوك ولا جدك قط . وإن الناس ليذعنون في الغارات فيعرفون بتسويمهم ، فما رأيناك في خيل مغيرة في أوائل الناس قط . وإن اللبس ليكون بيننا ، فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطة فيصل ، وإنما أنت فقع نبت بقرقر وإنني لأحتضر البأس ، وأوافي المغنم ، وأعف عن المسألة ، وأجود بما ملكت يدي ، وأفضل الخطاة الصمعاء ، وأما الشعر فستعلم . وأنشد معلقته

التي نورد طرفاً منها :

هل غادر الشعراء من مترد ؟ أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

يا دارَ عَيْلَةٍ. بِالْجَوَاءِ تَكَلَّمِي
 حَيِّتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ
 حَلَّتْ بِأَرْضِ الزَّائِرِينَ فَأَصْبَحَتْ
 عُلُقَّتْهَا عَرْضاً وَأَقْتُلُ قَوْمَهَا
 وَلَقَدْ نَزَلْتُ - فَلَا تَظُنِّي غَيْرَهُ
 كَيْفَ الْمَزَارُ وَقَدْ تَرَبَّعَ أَهْلُهَا
 إِنْ كُنْتَ أَرْمَعْتَ الْفِرَاقَ فَإِنَّمَا
 مَا رَاعَنِي إِلَّا حُمُولَةُ أَهْلِهَا
 فِيهَا اثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ حُلُوبَةً
 إِذْ تَسْتَبِيكَ بِدَى غُرُوبٍ وَاضِحٍ
 وَكَانَ فَارَةً تَاجِرٍ بِقَسِيمَةٍ
 أَوْ رَوْضَةٍ أَنْفًا تَضْمَنُ نَبْتَهَا
 جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ بَكْرٍ حُرَّةٍ
 سَحًا وَتَسْكَابًا فَكُلُّ عَشِيَّةٍ
 وَخَلَا الدُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحٍ
 هَزِجاً يَحُكُّ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ
 تُمْسِي وَتُصْبِحُ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّةٍ
 وَحَشِيَّتِي سَرَجٌ عَلَى عَبْلِ الشَّوَى
 هَلْ تُبْلِغُنِي دَارَهَا شِدْنِيَّةً

وَعِمِّي صَبَاحاً دَارَ عَيْلَةٍ وَأَسْلَمِي
 أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثَمِ
 عَسِيراً عَلَى صِلَابِكَ ابْنَةُ مَخْرَمٍ
 زَعَمًا لِعَمْرٍ أَبِيكَ لَيْسَ بِمَزْعَمٍ
 مِنِّي - بِمَنْزِلَةِ الْمُحِبِّ الْمُكْرَمِ
 بِعُنِيزَتَيْنِ وَأَهْلُنَا بِالْغَيْلَمِ
 زُمْتُ رِكَابُكُمْ بِلَيْلٍ مُظْلِمٍ
 وَسَطَ الدِّيَارِ تَسْفُ حَبَّ الْخَمِخَمِ
 سُدَّ كَخَافِيَةِ الْغَرَابِ الْأَسْحَمِ
 عَذَبٍ مُقْبِلُهُ لَدِيدُ الْمَطْعَمِ
 سَبَقَتْ عَوَارِضُهَا إِلَيْكَ مِنْ أَلْفٍ
 غَيْثٌ قَلِيلُ الدَّمَنِ لَيْسَ بِمُعْلَمٍ
 فَتَرَكْنِ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالدُّرْهِمِ
 يَجْرِي عَلَيْهَا الْمَاءُ لَمْ يَتَصَرَّمِ
 غَرْدًا كَفِعْلِ الشَّارِبِ الْمُتَرَنَّمِ
 قَذَحَ الْمَكِيبُ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْدَمِ
 وَأَبَيْتُ فَوْقَ سَرَاةٍ أَذْهَمَ مُلْجَمِ
 نَهْدٍ مَرَاكِدُهُ نَبِيلِ الْمَخْرَمِ
 لَعِنْتُ بِمَخْرُومِ الشَّرَابِ مُصَرَّمِ

خَطَّارَةٌ . . غِيبُ السُّرَى . زِيَاةٌ
 إِنْ تَغْدِي دُونِي الْقِنَاعَ فَلِإِنِّي
 أَتَى عَلَى بَمَا عَلِمْتَ فَلِإِنِّي
 فَإِذَا ظَلِمْتُ فَإِنْ ظَلَمِي بِاسِلٌ
 وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنْ الْمُدَامَةِ بَعْدَمَا
 بِزُجَاجَةٍ صَفْرَاءَ ذَاتِ أَسِرَّةٍ
 فَإِذَا شَرِبْتُ فَلِإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ
 وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصُرُ عَنْ نَدَى
 هَلَا سَأَلْتُ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ
 إِذْ لَا أَزَالُ عَلَى رِحَالٍ سَابِحٍ
 طَوْرًا يُعْرَضُ لِلطَّعَانِ وَتَارَةً
 يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقَائِعَ أَنَّنِي
 فَأَرَى مَغَانِمَ لَوْ أَشَاءَ حَوَيْثُهَا
 وَمُدَجَّجٍ كَرِهَ الْكُمَاةَ نِزَالَهُ
 جَادَتْ بَدَايَ لَهُ بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ
 فَشَكَكْتُ بِالرُّمَحِ الْأَصَمِّ ثِيَابَهُ
 وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرَّمَاحُ نَوَاهِلُ
 فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لَأَنَّهَا
 لَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ أَقْبَلَ جَمْعُهُمْ

تَطِيسُ الْإِكَامَ بِذَاتِ خُفٍّ مِيشَمٍ
 طَبٌّ بِأَخْذِ الْفَارِسِ الْمُسْتَلِثِمِ
 سَهْلٌ مُخَالَفَتِي إِذَا لَمْ أَظْلَمِ
 مَرٌّ مَذَاقُهُ كَطَعْمِ الْعَلَقَمِ
 رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ
 قُرِنْتُ بِأَزْهَرِ فِي الشَّمَالِ مُقَدَّمِ
 مَالِي ، وَعَرَضِي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ
 وَكَمَا عَلِمْتَ شَائِلِي وَتَكْرِمِي ...
 إِنْ كُنْتُ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي
 نَهْدِ تَعَاوُرَهُ الْكُمَاةَ مُكَلِّمِ
 يَأْوِي إِلَى حَصْدِ الْقَيْسِيِّ عَرْمَرِ
 أَغْشَى الْوَغَى وَأَعِيفٌ عِنْدَ الْمَغْنَمِ
 فَيَصُدُّنِي عَنْهَا الْحَيَا وَتَكْرِمِي
 لَا مُنْعِنَ هَرَبًا وَلَا مُسْتَسْلِمِ
 بِمُشَقِّفِ صَدَقِ الْكُغُوبِ مُقَوِّمِ
 لَيْسَ الْكَرِيمِ عَلَى الْقَنَا بِمُحَرَّمِ
 مَنِي وَبَيْضُ الْهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دِي
 لَمَعَتْ كِهَارِقِ ثَغْرِكَ الْمُتَبَسِّمِ
 يَتَذَامَرُونَ كَرَرْتُ غَيْرَ مُذَمَّمِ

يَذْعُونَ عَنْتَرَ وَالرَّمَا حُ كَأَنَّهَا
مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِغُرَّةٍ وَجْهِهِ
فَازْوَرُّ مِنْ وَقَعِ الْقَنَا بِلَبَانِهِ
لَوْ كَانَ يَذْرى مَا الْمُحَاوَرَةَ أَشْتَكَى
وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأَ مُقَمَّهَا
ذُلُّ رِكَابِي حَيْثُ شَتُّ مُشَايِعِي
وَلَقَدْ خَشِيتُ بَيَّانَ أَمُوتَ وَلَمْ تَكُنْ
أَلْشَاتِمِي عِرْضِي وَلَمْ أَشْتِمِهَا
إِنْ يَفْعَلَا فَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَاهُمَا
أَشْطَانُ بَشَرٍ فِي لَبَانِ الْأَذْمِ
وَلَبَانِي حَتَّى تَسْرِبَلُ بِالْدَمِ
وَشَكَا إِلَى بَعْبَرَةٍ وَتَحَنُّمِ
وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامَ مُكَلِّمِي
قِيلُ الْقَوَارِسِ: وَيَاكَ ، نَحْتَرِ أَقْدَمِ
قَلْبِي ، وَأَحْفِزُهُ بِأَمْرِ مُبَرِّمِ
لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي ضَمْنَمِ
وَالذَّادِرَيْنِ إِذَا لَمْ الْقَهْمَا دَمِي
جَزَرَ السَّبَاعِ وَكُلَّ نَسْرِ قَشْعَمِ

وإننا ، ونحن نقرأ شعر عنتر بن شداد ، نشعر أننا أمام امرأة هي أشبه
شيء بهيلانة التي كانت سبب الحرب بين الإغريق وطروادة : وأننا أمام عبلة
التي يشور لأجلها البطل العربي ، ويحارب في سبيلها ، ويسفك الدماء أنهاراً ،
وأننا أمام بطل هو أشبه شيء بأخييل طيار الخطي ، الذي يعتزل الحرب لخلاف
نشب بينه وبين أغا ممنون ويترك قومه عرضة للتلف ؛ وأننا أمام عنتره يعتزل
الحرب لخلاف نشب بينه وبين قبيلته ، لخلاف مرده إلى أن عنتره ابن أمة
لا يحق له الانتساب إلى قبيلته ولا يحق له الاقتران بابنة عمه ، ولا يحق له أن
يكون حرّاً . ولما اشتد الأمر على عبس وكاد يدركهم التلف صاحوا به : « ويك
عنتر أقدم ! » فيقدم عنتره حرّاً ، ويبدد جيوش الأعداء ، وينشر الدعر في
البلاد ، على جواد يكاد يتكلم ، وبسيف يجز الرؤوس ، ورمح يخرق الصدور ،
ويطير القلوب .

وترى في عنبرة جميع الصفات التي كان يتحلى بها فرسان القرون الوسطى
من شجاعة وشرف و قتال في سبيل هدف أعلى ، ومناصرة للضعيف ، وحب
شديد عنيف لفتاة كريمة يعمل جهده في إرضائها ، وهو شاعر فياض القريحة
يلتهب حماسة ، فنظم الشعر يصف مواقفه ، وإذا تقاسمه يقترب من نفس الملاحم ،
فهو يجعلنا في جوملحمى أبطاله سيف الشاعر ورحمه وساعده ، وخوارقه أعمال
الشاعر التي يضحكها الخيال الخلاق ، ويغشى قصصها بالصور والألوان ،
فتتوالى على السمع والبصر في إيجاز بعيد عن التفصيل ، وفي موسيقى شديدة
الوقع ، ولغة وثابة فيها عزة الشاعر وثورته ومزاجه العصبي .

الحماسة في العهد العباسي

(١) دواعي الحماسة العباسية :

وقفت الفتوح في العهد العباسي ، وأخلد الناس إلى الأمن والراحة في أغلب الأحيان ، ولولا بعض الحروب والفتن لتمدت جدوة الشعر الحربي في العالم العربي ، أما تلك الحروب والفتن فمرجعها إلى ما يلي .

قامت الدولة العباسية في أول عهدها على القوة ، واستعانت بالفرس خاصة والشعبوية عامة ، وبالعرب المناهضين للدولة الأموية ممن يناصرون الهاشميين ، فشالت كفة العرب والعروبة ورجحت كفة الأعاجم ، واقتصر شأن العرب على أن يكونوا عنصراً من العناصر الكثيرة التي احتوتها الإمبراطورية ، وتغلغل الفرس في صلب الدولة . ولما نقلت العاصمة إلى بغداد تحول وجه الدولة عن البحر المتوسط ، وتوجه شطر فارس ، وأدخل الفرس على العرب سياسة الحكم المطاقي ، وهكذا حاكى العباسيون الأكاسرة في تنظيم دولتهم ، ومالوا إلى الترف والرخاء ، واعتمدوا على من يقوم مقامهم في مباشرة الأعمال ، ففرعوا المناصب وأكثروا من الدواوين ، وأقاموا على الأقاليم البعيدة عمالاً يأمرهم وينهون ، من مثل جعفر ابن يحيى البرمكي ، الذي ولاه الرشيد المغرب كله من أنبار إلى إفريقية ، وأخيه الفضل بن يحيى الذي تولى الشرق كله من شروان إلى أقصى بلاد الترك .

ولم يقف العباسيون عند هذا الحد بل تجاوزوه شيئاً فشيئاً إلى إدخال الفرس والأتراك في جندهم ، فكان في الجيش فرقة خراسانية ، وكان في الجيش أيضاً عدد كبير من الفراغنة أي الأتراك ، جمعهم المعتصم من أسواق بغداد لخوفه على

نفسه من جنده ، فكانوا على الخلافة والدولة وبالأحرار ، وقد عملوا على دك أركانها وعلى نشر الفوضى في البلاد .

ونم تخل البلاد ، في عهد بني العباس ، من حروب وفتن . أما في الداخل فقد نهضوا إلى قمع ثورات الراوندية مؤطى أبي مسلم الخراساني ، والزنادقة في العراق وفارس ، والعلويين مع ابن طباطبا ، والخرمية^(١) مع بابك ، وغيرهم من الذين قاموا في وجه الأمن والسلام . وأما في الخارج فقد أكثر الخلفاء من الصوائف والشوائب ، وهي الحملات والغزوات في الصيف والشتاء ؛ وقد اشتهر في ذلك أبو جعفر والمهدي والمعتصم ، فحاولوا غزو الممالك الملاصقة ولا سيما بلاد الروم .

وهكذا جرت في العهد العباسي مواقع تشبه أيام الجاهلية من حيث إنها أصبحت مستوحى الشعراء وموضوع أناشيدهم الحربية . ومن ذلك وقعة « أرشق » للأفشين على بابك الخرمي ، وقد تغنى بها أبو تمام وأشاد فيها بذكر الأفشين ؛ وكذلك وقعة عمورية للمعتصم على ملك الروم تيوفيل ؛ وثورة الزنوج ودخولهم البصرة ، وقد سجل ابن الرومي تاريخها في شعره ، إلى غير ذلك من المواقع البرية والبحرية التي سنأتي على ذكرها في دراسة كل شاعر .

(ب) موضوعات الحماسة العباسية وميزاتها :

دار الشعر الحماسي في العهد العباسي حول وصف تعبئة الجيوش ، وزحفها ، ووصف الأسلحة والخيول والأساطيل والنصر وفرار العدو ، وما إلى ذلك . وقد تتبع الشعراء في هذا العهد أساليب الأقدمين ومعانيهم ، وزادوا على ذلك أن مزجوا الحكمة بالتصوير الفني وألفوا بين الوصف وحسن التعليل ، واهتموا للصياغة اهتماماً خاصاً ، كما اهتموا للتزييق والتحويل في الوصف والتصوير .

(١) ظهر بابك الخرمي في عهد المأمون نحو سنة ٧١٨ م .

(ح) نماذج من الحماسة العباسية :

اشتهر كثيرون في الشعر الحماسي لهذا العهد ، وإننا سنقتصر على ذكر أبي تمام وأبي الطيب المتنبي .

أبو تمام هو حبيب بن أوس الطائي ، وقد اهتم للحروب والفتن التي نشبت في أيامه في شرق العراق وفي غربه ، ومن أهمها الحرب التي دارت بين بابك الخرمي والمعتصم . وقد خلع بابك الطاعة واعتصم في أرض البذل وإقليم أذربيجان ، فسير إليه المعتصم قائده الأفشين عملاً بوصاية أخيه المأمون قبل موته ، فسار إليه بجيش حسن الإهبة . ولما التقى الجيشان جرت بينهما مناوشات مختلفة لم تمكن أحدهما من الآخر ، إلى أن كان يوم « أرشق » فالتحم الجيشان التحاماً شديداً ، ولاذ بابك بالفرار فتبعته جماعة الأفشين وأدركته ليلاً ، فهجم الأبطال على الأبطال ، واصطدم الرجال بالرجال ، إلى أن أفر الصباح ، والمعركة لا تزال حامية الوطيس ، وامتد النهار إلى أن كان الزوال ، فسقط من جماعة بابك عدد كبير وتشرد الباقيون ، وقبض على بابك وقيد إلى المعتصم مغلولاً ، فقتل شر قتلة . واستقبل الأفشين أحسن استقبال ، وأدخل إلى القصر في اعتزاز ، وبذلت له الأموال والجواهر ، وأدخل عليه الشعراء بمدحونه .

وقد نظم أبو تمام في فتنه بابك الخرمي شعراً كثيراً ، من أروع قصيدة لامية قالها في انتصار الأفشين ، وصور حال الناس القلقة من جراء بطش بابك وسطوته في البلاد ، ثم راح يصف يوم أرشق وما جرّ من الوبال على ذلك الداهية الذي مات المأمون وهو عاجز عنه ، والذي دوّخ البلاد بجيش جمعه من البرك والفرس وكل من نغم على بني العباس ، وراح أبو تمام يتبع الموقعة ، ويحدد زمانها ومكانها بدقة ، ويذكر حركات الجيشين وقد استبسلا استبسالاً عظيماً ، ويتدفق مع المسلمين تدفقاً عاطفياً جباراً ، ويرسل مع كل لفظة حمماً من بركان

نفسه ، ويحمل كل عبارة ما لا تطيق من المعاني الحربية الشديدة ، ومن الأخيلة الضخمة ، ومن الموسيقى التهويلية ، ومن المقارنات اللفظية والمعنوية المؤثرة ، ويقول :

يا يَوْمَ أَرَشَقَ كُنْتَ رُشِقَ مَنِيَّةٍ	للخرمِيَّةِ ، صَائِبَ الآجَالِ
أَسْرَى بَنُو الْإِسْلَامِ فِيهِ وَأَذْلَجُوا	بِقُلُوبِ أَسَدٍ فِي صُدُورِ رِجَالِ
لَمَّا رَأَاهُمْ بِأَبْكَ دُونَ الْمُنَى	هَجَرَ الْغَوَايَةَ بَعْدَ طَوْلِ صِيَالِ
يَوْمَ أَضَاءَ بِهِ الزَّمَانُ وَفَتَحَتْ	فِيهِ الْأَسِنَّةُ زَهْرَةَ الْأَمَالِ
وَسَرُوا بِقَارِعَةِ الْبَيَاتِ فَرَحَزِحُوا	بِقِرَاعِ لَا صَلَيفٍ وَلَا مُخْتَالِ
نَزَلَتْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ عَلَيْهِمْ	لَمَّا تَدَاعَى الْمُسْلِمُونَ : نَزَالِ
لَمْ يُكْسَ شَخْصٌ فَيْثُهُ حَتَّى رَمَى	وَقْتُ الزَّوَالِ نَعِيمَهُمْ بِزَوَالِ
فَالْبَدُّ أَغْبَرُ دَارِسِ الْأَطْلَالِ	بَيْدِ الرَّدَى أَكْلٌ مِنَ الْآكَالِ
أَلَوْتُ بِهِ ، يَوْمَ الْخَمِيسِ ، كَتَائِبُ	أَرْسَلْنَهُ مَثَلًا مِنَ الْأَمْثَالِ
كَمْ صَارِمٍ عَضِبَ أَنْفَ عَلَى فَتَى	مِنْهُمْ لِأَعْبَاءِ الْوَعَى حِمَالِ
سَبَقَ الْمَشِيبُ إِلَيْهِ حَتَّى ابْتَزَّهُ	وَطْنَ النُّهَى مِنْ مَفْرِقٍ وَقْدَالِ
قَاسَى حَيَاةَ الْكَلْبِ إِلَّا أَنَّهُ	قَدْ مَاتَ صَبْرًا مِيتَةَ الرُّبَالِ

وهكذا يسير أبو تمام في ملحمة الحربية من مشهد إلى مشهد ، متمثلاً ، هائج العاطفة ، هائج الخيال ؛ ينتصب أمام ذلك اليوم بكل شطاطه ، فيناجيه ، ويشخصه ، ويكاد ينتشى لذكره ، ويحار كيف يصوره ، فينتزع الصور من الألفاظ انتزاعاً ، ويقم التنازع بين الألفاظ والوجوه التعبيرية والبيانية ، وإذا أنت أمام قصيدة قد تدرعت ألفاظها ، وتتابع أبيتها ، جيوشاً جيوشاً ، تقودها العاطفة الصاخبة على أجنحة خيال أشد من الخيول

انطلاقاً ، وإذا أنت أمام حرب مشخصة أحسن تشخيص .

ومن الأحداث الكبرى التي شغلت أبا تمام وفجرت قريحته الشعرية فتح عمورية ، وذلك أن الروم اغتنموا فرصة انشغال العرب بحروب بابل ، فجهز تيوفيل إمبراطور الروم سنة ٨٣٧ م جيشاً عظيماً من مائة ألف مقاتل ، وزحف به قاصداً بلاد العرب ، ففتح زبطرة وأعمل السيف في رقاب أهلها ، كما أعمل النار في ديارها ، واستاق إلى القسطنطينية مالاً وغنائم ، ولما بلغ الخبر أذن الخليفة ارتاع له ، وهب من ساعته فعبأ العسكر ، ونادى بقواده الكبار من مثل الأفشين ، وبغا ، وأشناس ، وجعفر بن دينار ، وقسم جيشه كراديس ، وجهزه بالعدة والسلاح ، وكان على أهبة السير إلى عمورية حين نهض المنجمون ونهوه عن الحرب احتساباً منهم أنه طالع نحس ، وأن عمورية لن تفتح إلا في وقت إدراك التين والعنب ، فلم يعبأ المعتصم بذلك بل زحف زحفاً شديداً ، حتى بلغ عمورية وحاصرها حصاراً شديداً مدة خمسة عشر يوماً ، ورمى أسوارها وأبراجها بالمجانيق وسائر الآلات الحربية المعروفة لذلك العهد ، فخرت الأسوار وانهار الجيش العربي على المدينة ، وقتل من الروم خلقاً كثيراً ، واستاق عدداً من القواد كما رجع بمال وغنائم . وقد اهتزت البلاد لتلك الموقعة اهتزازاً شديداً واهتزت قريحة أبي تمام اهتزازاً عنيفاً ، وانتصب في سامراً يمدح المعتصم ويصف الموقعة ويقول :

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ	فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ
بِيضُ الصَّفَائِحِ لِأَسْوَدِ الصَّحَائِفِ فِي	مُتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشَّمَكِ وَالرَّيْبِ
وَالْعِلْمُ فِي شُهْبِ الْأَرْمَاحِ لَامِعَةٌ	بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ
أَيُّنَ الرُّوَايَةِ بَلُّ أَيُّنَ النُّجُومِ وَمَا	صَاغُوهُ مِنْ زُخْرِفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ
تَعْرِصًا وَأَحَادِيثًا مُلَفَّقَةً	لَيْسَتْ يَنْبَغُ إِذَا عُدَّتْ ، وَلَا غَرَبِ

يا يَوْمَ وَقَعَةِ عَمُورِيَّةٍ أَنْصَرَفَتْ
لَقَدْ تَرَكْتِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا
غَادَرْتَ فِيهَا بِهَيْمَ اللَّيْلِ وَهُوَ ضُحَى
حَتَّى كَأَنَّ جَلَابِيبَ الدُّجَى رَغَبَتْ
ضَوْءَ مِنَ النَّارِ ، وَالظُّلُمَاءُ عَاكِفَةٌ
فَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ مِنْ ذَا ، وَقَدْ أَفَلَتْ
تَذِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللَّهِ مُنْتَقِمٍ
لَمْ يَغْزُقُوا ، وَلَمْ يَنْهَذَا إِلَى بَلَدٍ ،
لَوْ لَمْ يَقْدَحْ خُفْلًا يَوْمَ الْوَعَى لَغَدَا
عَنْكَ الْمُنَى خُفْلًا مَعْسُولَةَ الْحَلَبِ
لِلنَّارِ يَوْمًا ذَلِيلَ الصُّخْرِ وَالْخَشَبِ
يَشُدُّهُ وَشَطَهَا صُبْحٌ مِنَ الْأَهَبِ
عَنْ لَوْنِهَا ، أَوْ كَأَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَغِبْ
وِظْلَمَةٌ مِنْ دُخَانٍ فِي ضُحَى شَجِبِ
وَالشَّمْسُ وَاجِبَةٌ فِي ذَا ، وَلَمْ تَجِبِ
لِلَّهِ مُرْتَقِبٍ فِي اللَّهِ مُرْتَهَبِ
إِلَّا تَقْدَمُهُ جَيْشٌ مِنَ الرُّعْبِ
مِنْ نَفْسِهِ وَخَدَهَا فِي جَحْفَلٍ لَجِبِ

هذه أبيات من القصيدة الطويلة التي نظمها أبو تمام في فتح عمورية ، وقد خلق فيها تحليق النور ، وحاول أن يربط الأحداث التاريخية بأهداب عاطفته الجياشة ، وأن ينطلق مدوياً ، مصوراً ، راسماً بريشته الآفاق والأجواء ، وإذا أنت أمام مشهد هول تقشعر له الأبدان ، وإذا أنت في ليل من عجاج وظلام ، وفي نهار من لهب ونيران . وإذا النيران تمتد وتلتهم وتتصاعد في الجو لهباً ودخاناً ، وإذا أنت أمام شاعر يمزج الحقيقة بالعاطفة الهدارة ، والخيال الحربي المندفع ، فيكثر من الطباق والجناس ، ويكثر من استعمال الألفاظ الشديدة الوقع ، وإذا الأبيات كتائب كتائب ، والعبارات صلصلة سيوف ورماح .

وهكذا يتجلى أبو تمام رجل حماسة ورجل اندفاع ، ينظم وهو شديد الانفعال ، شديد التطلب للتفكير المركب ، والصور المتناقضة المركبة في تناقضها ، والعبارات المحبوة حبكاً معقداً ، والحافلة بالموسيقى الهدارة وبكل غريب صاعد .

ولانه ليضيق بنا المقام لو أردنا تتبع أبي تمام في شعره الحماسي الكثير ، وإننا نكتفى بما أوردنا لما فيه من الدلالة على ما لم نورد .

أما أبو الطيب المتنبي ، وقد أتينا على ذكره في باب الفخر الذاتي ، فهو شاعر الحماسة الحمدانية ، وقد فسحت له البيئة مجالاً واسعاً لذلك ، لأن حروب الحمدانيين مع الروم دامت نحو ستين عاماً ، وكان لها أصداء واسعة في طول البلاد وعرضها . وقد استخلص الدكتور زكي المحاسني من كتابات المؤرخين أوصاف جيشي الروم والعرب فقال : « إن جند سيف الدولة كانوا مغاوير محبين للحرب . . . ولم يكن لباس الجندى العربى مختلفاً عن لباس الجندى اليوناني ، الذي سلاحه قوس ونبل ودرع ومزراق وسيف وفأس للمعركة ، وإلى ذلك مغفر يستر الرأس ، ودرع من المعدن تغطي الجذع ، وجانبيات تستر رجله والساعدين ، ومقاود من الفولاذ للخيول . وكانت أغماد السيوف العربية مرصعة بالفضة ، وسروج الخيول العربية مثل سروج خيول الروم . وكان العرب زمن سيف الدولة يلبسون ضروباً من الدروع اسمها الجوشن تغطي الفرس . . . ولم يكن شيء يختلف بين الروم والعرب في نظام الحرب سوى الهجوم ، فإن الروم تعودوا مع البلغار والروس الهجوم المنظم بخلاف العرب . أما باقي فنون الحرب فكانت متشابهة كل التشابه عند الفريقين . . . ولم يكن العرب مثل جنود البيزنطيين ينقلون أداة حروبهم على العجل والدواب وإنما كانت الإبل لحمل أثقالهم . وما كانوا ، ورحى المعركة تدور ، يستعينوا بالطبل الكبير أو القرون النافخة ، وإنما كانوا يقرعون على طبول صغيرة قرعاً عاجلاً متتابعاً . وهم إذا ساروا قاتلوا أقتابهم وعدتهم فزحف جيشهم مزيناً بالأعلام الملونة على رؤوس الرماح قصاصات مصفورة تلوح فوق رماحه المنصوبة التي لا ينتهي الطرف إلى مداها . وكانوا جميعاً مزينين بهذه الأعلام الملونة ، وهم إذا ساروا وثار الغبار وراءهم ، ترنموا في مسيرهم بأغان مقرونة بصوت الطبل الغامض المبهم وقرع الصنوج ، وكان الفرسان المسلحون ،

لكى يسرعوا في السير ، يزحف مع كل فارس منهم جندي راجل وراه .
 أما أهم المعارك التي جرت بين سيف الدولة والروم فمعركة خرشنة ، ومعركة
 الحدث الحمراء ، ومعركة الدرب وقد سجلها المتنبي في شعره أروع تسجيل .
 أما معركة خرشنة فقد جرت سنة ٩٥٠ م وهي مزدوجة ، بدأت بفوز العرب على
 الروم ثم بفوز الروم على العرب ، وقد اتخذ الطرفان الحيلة الحربية طريقاً إلى
 النصر ؛ أما العرب فقد ساروا بجيش جرار ، وكنوا في بطن اللقان بالقرب من
 خرشنة ، وتقدم سيف الدولة بسرية واحدة يريد الدمستق وجيشه ، فحسب
 الدمستق أن جيش العرب قليل العدد والعُدَد فهاجمه بعسكره مهاجمة عنيفة ،
 ولم يحسب للطوارئ حساباً ؛ وفيما هو كذلك ثار عسكر العرب الكامن في كل
 مكان وانتفضت الأرض عن رجال وأسلحة ملأت الآفاق ، وإذا الضربة هائلة ،
 وإذا الروم في انحطام شديد ، وإذا العرب على طريق العودة في نشوة أنستهم أن
 الروم جمعوا صفوفهم ، وكنوا لهم في طريق ضيقة وانهالوا عليهم ضرباً وتقتيلاً ،
 ففروا إلى بلادهم هاربين . ولما وصلوا إليها وقف المتنبي مبوقاً بيوق الظفر ، مشيداً
 ببطولة رجال أمير حلب ، وراح يصف تلك المعركة ، ويتتبع حركات الزحف
 العربي ، ويصف ضعف نظر الدمستق في الأمور ، وانكسار الروم ، وبسالة
 الجيش العربي ، ويمعن في وصف الخيول ، ويخرج من الهزيمة الأخيرة بنصر
 معنوي للأمير العربي ، ويقول :

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ	إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجَعُوا
وَالْمُشْرِفِيَّةُ لَا زَالَتْ مُشْرِفَةً	دَوَاءُ كُلِّ كَرِيمٍ أَوْ هِيَ الْوَجَعُ
وَفَارِسُ الْخَيْلِ مَنْ خَفَّتْ فَوْقَهَا	فِي الدَّرْبِ وَالْدَّمُ فِي أَعْطَافِهِ دُفَعُ
بِالْجَيْشِ تَحْتَنَعُ السَّادَاتُ كُلُّهُمْ	وَالْجَيْشُ بَابِنِ أَبِي الْهَيْجَاءِ يَمْتَنَعُ
قَادَ الْمُقَانِبَ أَقْصَى شُرْبِهَا نَهْلُ	عَلَى الشُّكِيمِ وَأَذْنَى سَيْرِهَا سَرَعُ

وأما معركة الحدث الحمراء ، فقد جرت بعد أن هدم الروم ذلك الثغر وقوضوا أركانه ، وبعد أن باشر سيف الدولة إعادة البناء . فقد هاجمه الروم ، وهو في حومة العمل ، وعلى رأسهم برداس فوكاس . ونشبت الحرب هائلة بين الفريقين ، ودامت من طلوع الشمس إلى غروبها ، وأسفرت أخيراً عن فوز الجيش العربي . ولم يترك سيف الدولة مدينة الحدث حتى أتم بناء سورها سنة ٩٥٤ م . فتناول المتنبي ذلك الحادث العظيم ونظم فيه ميمته الشهيرة :

على قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

وقد افتتح القصيدة بإظهار عظمة سيف الدولة وما في قلبه من شجاعة وهمة ، ثم انتقل إلى الحدث وإذا هي حمراء من دم الأعادي ، وإذا سيف الدولة يبنها في حومة الوغى ، والروم يهاجمون بجيش جرار ، تجمع فيه كل لسن وأمة ، بجيش يغطيه الحديد ، وتتصاعد زمازمه إلى أعالي الفضاء :

أَتَوَكَّ يَجْرُونَ الْحَدِيدَ كَأَنَّمَا سَرَوْا بِجِيَادٍ مَا لَهُنَّ قَوَائِمُ
إِذَا بَرَقُوا لَمْ تُعْرِفِ الْبَيْضُ مِنْهُمْ ثِيَابُهُمْ مِنْ مِثْلِهَا وَالْعَمَائِمُ
خَمِيسٌ بِشَرْقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ زَحْفُهُ وَفِي أُذُنِ الْجُوزَاءِ مِنْهُ زَمَازِمُ
تَجْمَعُ فِيهِ كُلُّ لِسْنٍ وَأُمَّةٍ فَمَا يُفْهِمُ الْحُدَاثَ إِلَّا التَّرَاجِمُ

والتحم القتال شديداً ، ودارت الدوائر على جيش الروم ، فوقف سيف الدولة باسماء ، وقد ضم جناحي العدو على القلب ضمة عنيفة ، وراح يطلق الضربات إثر الضربات ، واستغنى عن الرماح بالسيوف :

وَمَنْ طَلَبَ الْفَتْحَ الْجَلِيلَ فَإِنَّهَا مِفَاتِيحُ الْبَيْضِ الْخِفَافُ الصَّوَارِمُ

وهنا وقف المتنبي يصف في هياج ظاهر ، وفي لهجة مطوية على الإعجاب .

بالعظمة والبطولة ، وإذا ألفاظه متجالدة ، وحروفه مدوية ، ومعانيه متتابعة
تتابع السيل الجارف ، في غلو خيالي لا يحده حد ، حتى قال واصفاً الخيل :

إِذَا زَلِقَتْ مَشْيَتَهَا بِبُطُونِهَا كَمَا تَتَمَشَّى فِي الصَّعِيدِ الْأَرَقِيمِ

وهكذا انتهت المعركة بقصيدة ليست دون المعركة هولاً وخلوداً .

وأما معركة الدرب . فرجع أسبابها إلى أن البطريق أقسم عند ملكه أنه
يعارض سيف الدولة في الدرب ، وسأله أن ينجده ببطارقه وعدده وعدده ،
ففعل ، فخاب ظنه . واندحر واندحرت معه جيوشه ، وكانت هذه المعركة آخر
المعارك الظافرة لسيف الدولة على الروم ، فنظم المتنبي فيها قصيدة كانت آخر
ما أنشده بحلب . ومطلعها :

عُقْبَى الْيَمِينِ عَلَى عُقْبَى الْوَغَى نَدَمٌ مَاذَا يَزِيدُكَ فِي إِقْدَامِكَ الْقَسَمُ

وقد تناول المتنبي قسم البطريق وراح يبين له كيف حلف على الظفر بسيف
الدولة ، فاضطره إلى نقض عيمته فتي أراه من شدة الضرب ما أذهله عن قسمه
وأنساه كلامه ووعدده ، فتي تكل السيوف وهو لا يكل :

كُلُّ السُّيُوفِ إِذَا طَالَ الضُّرَابُ بِهَا يَمَسُّهَا - غَيْرَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ - السَّامُ

ففي ظن الروم أنه كالمصباح في حلب إذا فارقها إليهم أظلمت وانتقض
أهلها عليه وشقوا عضاً الطاعة ، ولم يعلموا أنه الشمس التي تعم كل مكان بنورها ،
وقد مشى إليهم بجيش بعيد الأطراف ، ونخيل حميت حدائد لحمها من شدة
الحر ، حتى كوتها الحكم كالمياسيم ؛ ولما وصل إلى سمنين وردت خيوله بحيرتها
فسمع للجمها نشيش عندما أصابها الماء وأطفأ حرارتها ! ثم انتقل إلى قرى هنريط
فجالت الخيل فيها للغارة والقتل ، وجالت السيوف لتقطيع الرؤوس ، فهرب

العلو واجتاز نهر أرسناس عله يجد ملجأ ، فلم يجد ، لأن خيول الجيش العربي أصبحت سفناً تمخر في عباب النهر ، مندفعة أشد اندفاع .

وها هو ذا المتنبي في حومة القتال يطلق صوته ويقول مخاطباً أمير حاب :

صَدَمَتْهُمْ بِخُمَيْرٍ أَنْتَ غُرَّتْهُ	وَسَمَّيْتَهُ فِي وَجْهِهِ غَمَمٌ
فَكَانَ أَثْبَتَ مَا فِيهِمْ جُسُومُهُمْ	يَسْتَقُطْنَ حَوْلَكَ وَالْأَرْوَاحُ يَنْهَزِمُ
وَالْأَعْوَجِيَّةُ مَلَأَ الطُّرُقِ خَلْفَهُمْ	وَالْمَشْرِفِيَّةُ مَلَأَ الْيَوْمِ قَوْعَهُمْ
إِذَا تَوَافَقَتِ الضَّرَبَاتُ ضَاعِدَةً	تَوَافَقَتْ قُلُلٌ فِي الْجَوِّ تَضْطَلِمُ

وهكذا ينطلق المتنبي في جيشان عاطفة وثورة خيال ، وهكذا ينحتم ملحمة الحمدانية بقصيدة هي من أروع قصائده ، وهكذا « نخلد ذكر الحروب ، ووصف تلاوين القروسية وتهاويلها ، في دنيا الحمدانيين مع الروم ، وكتب بيده أكبر ملحمة للعرب والإسلام بأفخم أسلوب وأعذب بيان » .

شعر الحماسة بعد أبي الطيب المتنبي

واصل الشعر الحماسي سيره بعد أبي الطيب ، فكان عند أبي فراس الحمداني ثورة نفسية ممزوجة بذل الأسر ، وكان عند صفي الدين الحلي انتفاضة شديدة ، ولا سيما في قصيدته النونية المشهورة التي أصبحت نشيد القومية العربية من بعده ، وكان عند ابن هاني الأندلسي وعند الشيخ ناصيف اليازجي تقليداً لشعر المتنبي ، وكان عند محمود سامي البارودي انطلاقات عسكرية ، وكان عند أحمد شوقي وخليل مطران نماذج تاريخية اجتماعية ، وكان في كل دولة عربية أناشيد قومية وتنفسات تحررية . وإنه لا يسعنا التطويل في مثل هذا الكتيب ، ولنا في ما بسطناه نماذج كافية على ما فطرت عليه الروح العربية وعلى ما تصبو إليه ، ثم على ما قامت به من جليل الأعمال في ميادين البطولة ومجالات المجد والخلود . وعلى ضيق المجال ليس لنا بد من كلمة نقولها في شاعر معاصر هو في نظرنا أبو الملحمة العربية الحديثة ، وهو في نظرنا القمة التي وصل إليها الشعر الملحمي الواعي ، والشعر الملحمي الموسوعي ، والشعر الملحمي الذي يحمل ثقافة عصور ، وفلسفة دهور ، والشعر الملحمي الذي يعالج قضايا العرب الاجتماعية في حرار وفصاحة نور ، والشعر الملحمي الذي يوجه ويقود في بلاغة عربية أصيلة ، وفي بيان عربي رائع ، وفي مراعاة شديدة لنظام القصيدة العربية الكلاسيكية ، وفي تدفق ينبوعي يضطرب في لون محلي ، وفي تنوع غني ، وفي جو من البطولة المعنوية والبطولة المادية . أما ذلك الشاعر فهو « بولس سلامة » ، وأما ملحمة الكبرى فهي « ملحمة عيد الرياض » التي ظهرت في هذه الأيام الأخيرة ، ونحن آخذون في طبع هذا الكتيب ، والتي نظمها صاحبها في مدة ثمانية أشهر ،

واستغرق طبعها نحو عشرة أشهر والتي وقعت في نحو ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير ، وفي نحو ثمانية آلاف بيت من الشعر ، كلها على البحر الخفيف .

كان الشاعر بولس سلامة قد أتحف البلاد العربية بملاحمة « عيد الغدير » وما هوذا يتحفها اليوم بملاحمة « عيد الرياض » ، وقد تغنى في الأولى بالإمام عليّ ، وتغنى في الثانية بماثر ابن سعود لما لقي فيه من بطولة تلتحق بعالم الخوارق ، وسخاء حاتمى ، وذكاء فطرى لماح ، وعدل وحلم ووفاء ، واتضاع ونخفص جناح ، ورقة وتقوى .

قال بولس سلامة في مقدمته : « ولعمري إن هذه الملحمة لترتفع عن الحادثة اليومية وجرى المعتاد ، ولا يقع مثلها على رصفات الشوارع أو فوق أدراج الفنادق كل يوم ، بل لم يقع مثلها في أيام العرب . فأين منها حرب البسوس ، أو حرب داحس والغبراء ؟ فإن عنزة ، على شجاعته ، في زمن يقي فرسانه دروع وأتراس ، لا يوازي ابن سعود فاتحاً صدره للرصاص والقنابل ، بل أين منها حرب طروادة نفسها ، لولا الخيال الهوميرى الذى لم يقتصر على إنزال آلهة اليونان إلى المعمعان ، بل غمر بالآلوهة أبطاله . فإذا كان لأمة الإغريق أن تباهينا بعبقرية شاعرها وإبداعه في الخلق والاختلاق ، فإننا نباهينا ببطولة عبد العزيز التى لا يضيرها صدق الواقع » .

ومن ثم فقد اعتمد الشاعر الأصل التاريخى ، وراح يلقى عليه من شخصيته القوية ، وصادق انفعالاته ، وروعة خياله ، ما رفعه إلى مستوى عال من العوالم الملحمية . وراح الشاعر يسرد الأحداث التاريخية المتعلقة بابن سعود ، وراح يمزج السرد بانفعالات شعرية ، واستطرادات وجدانية ، وما إلى ذلك مما يريح القارئ والسامع ، وراح ينظم القصائد الطويلة في جزالة وسهولة عجيبتين ، وفي تدفق شعري رائع ، وهو كلما أطال أجاد ، وكلما تدفق ازداد انفجاراً ، وكلما انفجر سبغ شعره في عالم من الروعة الأخاذة ، التى تجمع البداوة إلى الحضارة والفطرة ،

إلى الفلسفة والحكمة وعلوم الاجتماع . وهكذا كانت ملحمة عيد الرياض
موسوعة تاريخية فلسفية ، وهكذا كانت مزيجاً من إيمان وحماسة ، وهكذا كانت
صلصلة سيوف ، ورفرفة أجنحة ، وخفقة قلب حي ، وجمالاً شعرياً على كل
حال . وإليك نموذجاً من نشيدها الأول ، وعنوانه « أحلام الجزيرة » :

بَعَثَ الْحَرْبَ «دَاحِسٌ» فَاسْتَطَارَتْ	وَأَمَدَّتْ بِالْعَشِيرِ «الْمَغْبَرَاءُ»
أَمْطَرَتْ نَارَهَا نَجِيعاً وَدَمْعاً	وَمَنْ الْحَافِرَيْنِ ذُرَّ الْبَلَاءُ
وَبَنُو «الْعَبَسِ» جَمْرَةُ الْعُرْبِ لَوْلَا	عَنْتَرٌ لَاعْتَرَى سَنَاها انطفأ
إِذْ يُنَادُونَ وَيُكْ عَنْتَرُ أَقْدِمِ	وَعَزِيزٌ عَلَى التَّجِيدِ النَّدَاءُ
الْمُرَوَّاتُ فِي دِمَاهِ اسْتَجَابَتْ	وَأَسْتَشَاطَ الْفَوَادُ وَالْأَحْنَاءُ
وَتَنْثَرَتْ أَوْدَاجُهُ وَالْجُفُونُ	حُمُرُ أَجَتْ قَدُونَهَا الرَّمْضَاءُ
فَرَمَى فِي الْعِجَاجِ مُهْرًا قَتَاماً	كَانَ لَيْلًا فَحُمُرَتُهُ الدَّمَاءُ
قُنْفُذًا عَادَ مِنْ وَقُوعِ السُّهَامِ الزَّ	رَقِ غَصَّتْ بِسَيْلِهَا الْأَعْصَاءُ
كَادَ يَبْكِي مِنَ الْجَرَاحَاتِ لَوْلَا	أَنَّ فِي سَرِّجِهِ أَسْتَقَرَّ الرَّجَاءُ
فَتَعَجَّبَ لِأَذْهَمِينَ أَطْلَتْ	مِنْهُمَا فِي الْمَاعِ الْأَضْوَاءُ
قَدْ يَذُرُّ الضِّيَاءُ مِنْ جَنَحِ لَيْلٍ	وَمِنْ الْخَيْرِ قَدْ يَطْلُ الشَّقَاءُ
لَمْ يَرُوعْ «أَبَا الْفَوَارِسِ» جَيْشٌ	كُلَّمَا أَزْدَادَ زَادَ مِنْهُ الْمَضَاءُ
خَلْفَهُ طَرَفُ عِبِلَةٍ وَلَمَّاهَا	فَالْمَنَايَا لَطَرَفُهُ إِغْرَاءُ !

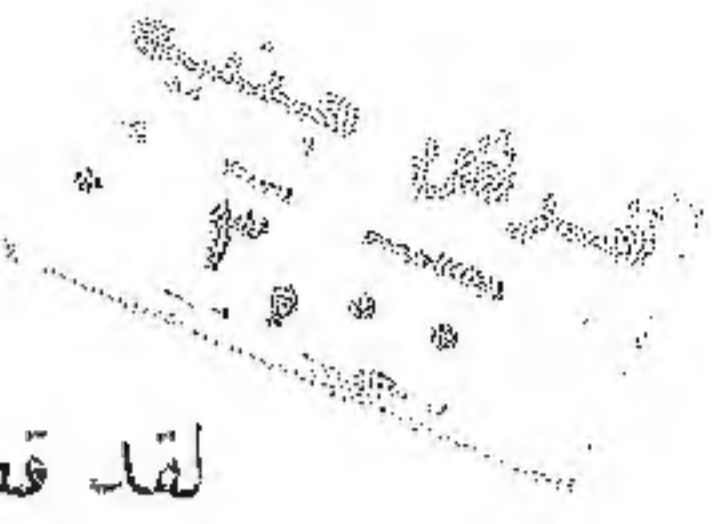
رقم الإيداع	١٩٩٢ / ٥٧٠٩
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-3758-2

١ / ٩٢ / ٥٩

طبع بإطباع دار المعارف (ج.م.ع.)

مجموعة

فنون الأدب العربي



لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للقارئ العربي ألواناً من الفنون الأدبية التي عالجها الأدب العربي في مختلف أقطاره وعصوره . فهي تقف أمام كل فن أدبي فتعالجه في جزء أو أكثر من هذه السلسلة التي سيجتمع فيها محصول وافر من فنون الأدب المختلفة التي تكون في مجموعها ذلك الهيكل الأدبي الضخم الذي شيدته العربية في تاريخها الطويل . .

وفضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربي لا على طريقة السنين ، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا في كتب التاريخ الأدبي . . . ولكنها تعالج الأدب على مدى ما اتسع فيه من فنون . . . فللمقامة موضوع ، وللقصة موضوع ، وللغزل موضوع ، وللوصف موضوع . . . وهكذا ستكون هذه المجموعة على قدر ما في الأدب العربي من فنون .

صدر منها :

- في الفن الغنائي : الغزل (جزءان) ، الرثاء ، الوصف ، المديح ، الفخر والحماسة ، الهجاء ، الموشحات والأزجال .
- في الفن القصصي : المقامة ، التراجم والسير ، الرحلات ، الترجمة الشخصية .
- في الفن التمثيلي : المسرح .
- في الفن التعليمي : النقد ، الخطب والمواعظ ، الحكم والأمثال .

تحت الطبع :

- في الفن الغنائي : الزهد والتصوف .
- في الفن القصصي : الملحمة ، القصة ، الحكاية والأقصوصة .
- في الفن التمثيلي : الفاجعة والمأساة ، الملهاة .
- في الفن التعليمي : منظومات الشعر .